الدكتور محمد حسين هيكل

الإمبراطورية الإسلامية

والأماكن المقدسة

دار الهلال

الامبراطورية الإسلامية
والأماكن المقدسة

تأليف

الدكتور محمد حسين هيكل

دار الهلال

تقديم

بقلم الأستاذ أحمد محمد حسين هيكل

تجتمع بين دفتي هذا الكتاب مباحث في موضوعين أساسيين : أولهما نظام الحكم في الاسلام ، وثانيهما الأماكن المقدسة في الشرق الأوسط

كتب والدي الدكتور هيكل هذه المباحث وأذاعها حوالي سنة ١٩٤٢ ، ثم ظلت منذ ذلك الحين مطوية بين أوراقه الى أن اختاره الله الى جواره الكريم . وهو لم يفكر في جمعها ونشرها ، كما لم يفكر في جمع أو نشر أي من مقالاته ومباحثه العديدة ، اللهم الا النذر القليل منها ، مما ظهر في كتابي : « ولدي » و « ثورة الأدب »

ولعل عزوفه عن جمع هذه المباحث والفصول ، يرجع الى انصرافه فترة طويلة الى شئون السياسة انصرافا شغل وقته كله ، والى أن سمة هذا العصر كانت الى عهد قريب جدا هي الجهد في الكتابة والتأليف لا جمع ما سبق أن كتب أو نشر من مباحث ومقالات

يتصل موضوع هذه الفصول اتصالا مباشرا بمرحلة فكرية رئيسية في حياة الدكتور هيكل : تلك مرحلة دراساته الاسلامية التي احتوتها كتبه « حياة محمد » و « في منزل الوحي » و « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » التي ظهرت جميعا في الفترة ما بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٤٥

وقد بين هذا الكتاب بجلاء ، في الجزء الخاص بالمبادىء العامة لنظام الحكم ، ان نظام الحكم الذي يتفق مع مقررات الاسلام هو النظام الذي تكفل في ظله الحريات ويكون أساسه رضا المحكوم عن الحاكم وحق المحكوم في مراقبة الحاكم ومحاسبته . وقد دعا الاسلام الناس ، بل فرض عليهم ، أن يعملوا مخلصين لاقرار هذه المبادىء الأساسية وصيانتها من كل عبث بها أو مصادرة لها ، وجعل ممارستهم لهذه الحريات والحقوق الطبيعية بعض ما يسأل الناس عنه أمام الله ويحاسبون أدق الحساب على اهماله

وقد تناول الجزء الثاني فكرتي الاشتراكية والديمقراطية في الاسلام . وقد خلص الدكتور هيكل الى أن الاشتراكية الاسلامية ، هي التي تقوم بالنفس على انها من فرائض الايمان . فالاسلام اذ قرر أن لا اكراه في الدين ، فهو قد أقر ذلك أيضا ، بل من باب أولى ، في نظم حياتنا جميعا

وفي الجزء الثالث ، تناول الدكتور هيكل ، بالبحث ، المبادىء الرئيسية للحرية الشخصية التي قامت على أساسها مواثيق التنظيم الدولي في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، مبينا ما بين هذه المبادىء وبين مقررات الاسلام من صلة تقرب أو تباعد بينهما ، وما يرتبه قيام هذه الصلة على عاتق الأمم الاسلامية من المسئوليات في المجتمع الدولي المعاصر

ثم ينتقل بنا الكتاب الى جزئه الأخير ، الذي يكاد يستقل موضوعه عن الأجزاء السابقة .. فهو يعرض للأماكن المقدسة في الشرق الأوسط عرضا تاريخيا أولا ، ثم يصف هـذه الأماكن وأثرها الروحي في حياة العالم ، متنقلا بك من مكة الى المدينة الى بيت لحم وبيت المقدس في فلسطين مستقر عيسى عليه السلام وموئل موسى كليم الله

ترك الدكتور هيكل ــ كما ترك بعض معاصريه من رواد نهضتنا الفكرية الحديثة ــ جانبا كبيرا من آثاره السياسية والأدبية اما مخطوطا لم ينشر، واما متناثرا في المجلات والصحف التي ظهرت خلال نصف القرن الماضي

ومن العسير على من يريد أن يقف على هذه الفترة من حياتنا الفكرية دارسا أو مؤرخا ، ألا يحسب لهذا القدر حسابه في دراسته أو تأريخه ، ومن الواجب علينا أن نعمل ما استطعنا ، على نشر هذا التراث على الناس ليقوم حق قيمته ، ولتكون صورة هذا العصر أكثر اكتمالا أمام من يبتغي دراستها أو التأريخ لها

وهذا الكتاب هو فاتحة الطريق في سبيل نشر آثار الدكتور هيكل التي كتبها ثم لم تنشر قط ، كتأريخه للقسم الأول من خلافة عثمان ، وبعض فصول الجزء الثالث من مذكراته في السياسة المصرية وغيرها ، أو التي نشرت في الصحف والمجلات ، الى ما قبل وفاته بأيام

— ١ —

أسباب قوة الامبراطورية الإسلامية

* قيـــام الامبراطورية الاســلامية حادث فذ
* كيف اســتقرت الامبراطورية الاســلامية
* رســــــــــالة الحرية والاخاء والمساواة
* أســباب تدهور الامبراطورية الاســلامية

حادث فذ

قيام الامبراطورية الاسلامية حادث فذ فى تاريخ الانسانية .. فقد بدأ الغزو العربى للشام والعراق سنة خمس وثلاثين وستمائة لميلاد السيد المسيح . وبعد خمس عشرة سنة من هذا التاريخ ، كانت الامبراطورية الاسلامية قد اشتملت على فارس ومصر وشمال افريقا .. وامتدت الى حدود الهند وتاخمت الصين . وقيام امبراطورية بهذه السعة ، فى هذا الزمن القصير ، معجزة لذاته . لكن من حوادث التاريخ ما يشبه هذه المعجزة ..

وحسبنا أن نشير الى حروب الاسكندر والى حروب المغول .. امتدت حروب الاسكندر مشرقة من مقدونيا الى الهند وتناولت مصر ، وامتدت حروب المغول غربا من قلب الصين الى أوروبا . لكن حروب الاسكندر وحروب المغول ، لما تكد تنتهى حتى تناثر عقد الامبراطورية التى نشأت سلطاتها ، وعادت الدول التى انتظمها الغزاة الى نظامها الأول ..

أما الامبراطورية الاسلامية التى مدت لواءها فى هذا الزمن القصير ، على هذا الجانب الكبير من العالم ، فقد استقرت قرونا امتدت أثناءها الى الأندلس ، وانتشرت فى الهند ، وأظلت جانبا من الصين . وهى الى ذلك ، قد أقامت حضارة سادت شئون العالم كل هذه القرون ، فلما آن للامبراطورية الاسلامية أن تنحل بقيت هذه الحضارة تناضل عن نفسها ، وهى اليوم تبعث من جديد

هذه هى المعجزة حقا !.. وقد حاول كثيرون تأويلها والتماس أسبابها ، ولما يبلغوا من ذلك غاية يطمئن الباحث المنصف اليها كل الاطمئنان . فاذا صح أن كانت عبقرية الاسكندر الحربية سبب فتوحه العظيمة ، وأن تنسب فتوح جانكيزخان ونابليون الى مثل هذه العبقرية ، فمن العسير أن ينسب قيام الامبراطورية الاسلامية الى عبقرية حربية من هذا القبيل ..

واذا جاز لنا أن نقرن اسم قائد نابغة ، كخالد بن الوليد ، الى أسماء الاسكندر وجانكيزخان ونابليون ، فيجب ألا ننسى ان هؤلاء بلغت بهم عبقريتهم أن أصبحوا ملوكا وان صار اليهم وحدهم الأمر كله .. على حين بقي خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وغيرهما من قواد المسلمين تحت سلطان الخلفاء أمراء المؤمنين .. بل لقد عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، وكان من أسباب عزله اياه انه خشي أن يظن الناس أن المسلمين لا ينتصرون الا بخالد ، وليس خالد فى رأى عمر الا رجلا من المسلمين شأنه شأن غيره من القواد . وانما النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ..

لابد اذن أن نلتمس لقيام الامبراطورية الاسلامية ولاستقرارها ، سببا غير السبب الذى أقام امبراطورية الاسكندر وغير الاسكندر من عباقرة الحرب .. وأن نلتمس هذا السبب — أو هذه الأسباب ان شئت تعبيرا أدق — عن طريق التحليل الاجتماعى لحياة العصر الذى قامت الامبراطورية الاسلامية فيه ، والعوامل الظاهرة التى أدت الى قيام هذه الامبراطورية واستقرارها

بعث النبي ودعوته

يذكر المؤرخون المسلمون أن بعث النبى العربى ودعوته ، هما اللذان أقاما هذه الامبراطورية . وهذا تعليل صحيح لا ريب .. فقيام النبى العربى بالدعوة الى الاسلام ، وانضواء جزيرة العرب كلها الى لوائه ، ذلك هو الذى دفع العرب الى ما وراء حدودهم ، وجعلهم يغنمون العراق والشام ويغزون الامبراطوريتين الرومية والفارسية .. لكن التاريخ يحدثنا بأن دعوة النبى العربى حوربت فى آخر حياته ، وبعد وفاته ، بأشد مما حوربت أول بعثه وفى مستهل دعوته . كان قومه من قريش هم الذين خاصموه وقاوموه فى السنوات الأولى من بعثه ودعوته .. وقد تغلب عليهم بالصبر والثبات ، فلما نفد صبره وخاف على الذين اتبعوه ، هاجر الى يثرب ، ثم

حارب خصومه حتى دان شبه الجزيرة لدعوته

فلما انتشر الاسلام فى ربوع البلاد العربية كلها نشأت دعوة تقاومه ، لم تلبث أن تمخضت عن حركة الردة التى استفحلت فى عهد أبى بكر . ولقد تردد غير واحد من كبار الصحابة بادىء الرأى فى مجاراة الصديق حين دعا لمحاربة المرتدين . فلو أن الدعوة الى الاعفاء من الزكاة استفحلت لاستفحلت معها فكرة الردة ، ولخيف على الدين الناشىء ألا يستقر فى النفوس ، فلا يكون الايمان به قويا الى الحد الذى يقيم أمبراطورية عظيمة ..

فلما انتصر أبو بكر فى حروب الردة ، وجمع شبه الجزيرة تحت لواء واحد ، وأقر وحدتها السياسية الى جانب وحدتها الدينية .. آن للعرب أن يندفعوا لغزو العراق وغزو الشام ، وكان هذا أول التمهيد الفتح وللأمبراطورية

ولم يكن هذا التمهيد مأمون العاقبة .. فقد انقضت خلافة أبى بكر ، وانقضت سنة أو نحوها من خلافة عمر بن الخطاب ، والعرب مقيمون على تخوم العراق وعلى تخوم الشام ، يتخطون هذه التخوم حينا ، ويردون عنها أحيانا . ولو أن القوة التى وقفت أمامهم ، كان فى مقدورها أن تصمد لهم لتغير وجه التاريخ ..

ويذهب بعضهم الى أن الأمر لو أسند الى خليفة غير عمر ، لتغير وجه التاريخ كذلك .. لكن قوة الروم وقوة الفرس تضعضعت أمام سياسة عمر وبأس الغزاة ، فاندفع هؤلاء يتخطون العراق الى فارس ، ويتخطون الشام الى مصر ، ولا يحاولون أن يكرهوا الناس من أهل هذه البلاد حتى يكونوا مسلمين

ريح الثورة

وانقضت خلافة عمر ، وانقضى الشطر الأول من خلافة عثمان ، ثم بدأت ريح الثورة تهب فى أرجاء الامبراطورية الناشئة .. فى مصر ، وفى العراق ،

وتنتهى الى قتل الخليفة الشيخ عثمان بن عفان . فلما وقع هـذا الحادث الأليم ، انطفأ لهب الثورة حينا ، ليندلع بعد ذلك أشد ما يكون أوارا .. فتكون الحرب الداخلية بين على ومعاوية ، أى بين بنى هاشم وبنى أمية ، وتظل أجزاء الامبراطورية فى الشام والعراق ومصر ، وفى شبه الجزيرة نفسها ، فى اضطراب أيما اضطراب

أين كان الروم ، وأين كان الفرس اذ ذاك ، وكيف بقيت الامبراطورية الاسلامية بعد ذلك ثابتة القواعد وطيدة الأركان .. فلم يفكر قياصرة بيزنطة ، ولا فكر وارثو الأكاسرة فى مهاجمتها وتقويض أركانها ؟ !

لم يقف الأمر عند عجز الروم والفرس دون انتهاز هـذه الحروب الداخلية التى شتتت العرب شيعا وأحزابا ، بل انتهت هذه الحروب بفوز بنى أمية بالملك .. ثم قيامهم بعد ذلك بتنظيم الامبراطورية من جديد ، وكأن لم تقع حرب أهلية ، وكأن مصر والشام والعراق وفارس قد أصبح أهلهم عربا متعاونين على تقوية هـذه الامبراطورية وتدعيم بنائها . ثم امتدت الامبراطورية بعد ذلك ، واشتملت على أمم وولايات لم تدخل حظيرتها فى عهد عمر ولا فى عهد عثمان

وشبت الثورة بعـد ذلك بين الأمويين والعباسيين ، وانتهت بظفر الأخيرين بالملك ، ثم لم تجن الحروب الداخلية على الامبراطورية ، بل ازدادت هذه الامبراطورية قوة حتى آن لعوامل الانحلال أن تتسرب اليها

انقضت بين التمهيد للامبراطورية وبدء انحلالها قرون عدة ، نشر أبناء الامبراطورية أثناءها حضارة جديدة ، أظلت العالم ووجهت مصائره .. ثم استجنت بعد انحلال الامبراطورية منتظرة أن تبعث من جديد

رسالة الحرية والمساواة

كيف استقرت الامبراطورية كل هذه القرون ؟.. وما بالها لم تهب عليها ريح الفناء التى هبت على امبراطورية الاسكندر وعلى امبراطورية المغول؟ ليس تفصيل هـذه الأسباب مستطاعا فى مثل موقفى هـذا .. لكنى

أستطيع أن أجمل هـــذه الأسباب فى سبب واحد .. ذلك ان العرب لم يندفعوا الى الغزو ، تحركهم مطامع مادية صرفة ، بل اندفعوا اليه مؤمنين بأن القدر ألقى عليهم رســالة وأوجب عليهم تبليغها للنـــاس كافة لخير الانسانية فى مشارق الأرض ومغــاربها . وهــذا الايمان هو الذى أقام الامبراطورية ، وهو الذى أبقاها ما بقيت من القرون . فلما اضمحل هذا الايمان ، بدأ الانحلال يدب فى أرجاء الامبراطورية .. يمزقها وينتهى بها الى مثل ما انتهت اليه الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية

لم تكن هذه الرسالة ، التى آمن العرب بأن القدر ألقى عليهم تبليغها للناس ، شيئا آخر غير رسالة الحرية والاخاء والمساواة فى أسمى صورة يدركها العقل لمعانى الحرية والاخاء والمساواة .. فالله الناس اله واحد .. والناس متساوون أمام هذا الاله الواحد ، لا فرق بين عربى ولا عجمى الا بالتقوى . وهم اخوة فى هذه المساواة ، يشد بعضهم أزر بعض . وهم ، مع هذا الاخاء وهــذه المساواة ، أحرار لا سلطان عليهم لغير الله . أما وهــذه المبادىء مقدسة .. فكل نظام يوضع للجماعة يجب أن يقوم على أساسها ، فلا يكون لخليفة المسلمين وأمير المؤمنين امتياز على أحد من رعاياه ، بل ان عليه لواجبا أن يخدم هذه المبادىء المقدسة أو يكون قد خالف ما أمر الله به

المبادىء السامية سر القوة

انتشرت هـــذه المبادىء فى شبه جزيرة العرب لعهـــد النبى العربى ، فحطمت فى النفس العربيـــة تقاليـــدها البالية التى أورثتها اياها عبـــادة الأصنام .. وردت اليها هـــذه الحرية الروحية العزيزة على نفس العربى ، فاندفع الى الشام والى العراق مؤمنا بها . وهناك ـــ على ضفاف دجلة والفرات ، وعلى ضفاف بردى ، وبين جبال لبنان الرفيعة ـــ لقى العرب نظاما اجتماعيا ونظاما سياسيا بلغا من الهرم والانحلال مبلغا صرف الناس عن التحمس لهما والدفاع عنهما . لذلك لم تحرك فرق الجند من الفرس

ومن الروم فكرة تدافع عنها فى قتالها العرب

بل كانت هذه القوات تذهب طوعا لأمر السادة الحاكمين .. وقل ان حفزت الطاعة للحاكم ، وحدها ، الى تضحية وان قلت !.. ما بالك والجندى يسير الى ميدان القتال ليضحى بحياته ، وليترك من بعده أهله وأبناءه بين أيم تندبه ويتيم يتلفت يمنة ويسرة ، فلا يجد ما هو فى أشد الحاجة اليه من حنان ورحمة !

فلما استقر المسلمون فى البلاد التى فتحوها ، أقروا هذه المبادىء السامية بين أهلها.. وجعلوا التسامح الدينى أساس حكمهم حيثما نزلوا .. فلم يكرهوا أحدا من أهل البلاد المفتوحة على الاسلام . وأباحوا للناس من ألوان الحرية ما كان معروفا فى ذلك العهد .. والحرية العقلية ، وحرية القول ، فى مقدمة ما أباحوا . واحترموا شعائر الجميع وعقائدهم ، وجعلوا العدل بين المسلم وغير المسلم أساس الحكم

فلما رأى الناس ذلك ، ورأوا المسلمين أنفسهم يستمتعون من ألوان الحرية العقلية والحرية العامة بما لم يكن له وجود من قبل فى بلاد الروم ولا فى بلاد العرب .. كان ذلك داعيا لهم الى الدخول فى الدين الجديد ، والتمتع بما قرره من مبادىء الحرية والاخاء والمساواة

وقد كان للحرية العقلية ولحرية الرأى من القدسية ما يشهد به اجتهاد المشترعين والفقهاء فى القرون الأولى ، وما يدل عليه ما نقل من كتب الفلسفة اليونانية ، وما أخذ به المفكرون والفلاسفة الاسلاميون من مبادىء هذه الفلسفة اليونانية وما أضافوه اليها من عندهم

أسباب التدهور

ظلت الامبراطورية الاسلامية قائمة قوية ما جعلت هذه الرسالة الانسانية السامية غايتها . ولقد كانت موشكة أن تنشىء على أساس من هذه الرسالة ، دولة عالمية تنتظم أمم ذلك العهد جميعا .. لكن دورة الفلك دارت ، فاذا الحرية انقلبت جمودا ، واذا الاخاء والمساواة يذبلان أمام

سلطان الباطشين من الحكام المستبدين

عند ذلك يدأ تدهور الامبراطورية وانحلالها ..

ولم يكن ذلك عجبا والحياة الانسانية فكرة ورسالة ، وليست أداة يوجهها من شاء الى ما شاء . والحياة الانسانية القائمة على الفكرة مثمرة دائما ، موجهة أبناءها جميعا الى ألوان من النشاط تزيدها قوة ، وتدفع اليها كل يوم حيوية جديدة

فاذا انطفأ نور الفكرة لم يبق للرسالة وجود ، وآن لهذه الحياة الانسانية أن يتوارى كل ما فيها من ضياء ، فلا يبقى منها الا المظهر المادى ، أو المظهر الحيوانى للوجود

ولا قيام لأمبراطورية على أساس من المادة ولا من المظهر الحيوانى .. ولذلك انحلت الامبراطورية الاسلامية ، لأن الرسالة التى آمن بها المسلمون الأولون توارت وراء الحجب

أفقدر لها أن تبعث من جديد ؟.. ذلك ما أعتقده .. وعلمه عند ربى

- ٢ -

نظام الحكم في الإسلام

* طبيعة الحكم الاســـــــــلامى وفكرته
* المبادىء الاساسية فى الحكم الاســلامى
* تطور نظام الحكم فى الاســـــــــــلام
* الحكومة الاسلامية والتشريع والقـانون
* الاسلام ومبـادىء الحضارة الانسانية

نظام الحكم

الكلام فى نظام الحكم فى أمة من الأمم ، لا يقف عند الفكرة العامة من الحكم .. فردى هو أم نيابى ، ملكى أم جمهورى ، ديمقراطى أم ديكتاتورى .. بل هو يتناول أمورا كثيرة تتصل بالفكرة العامة للحكم من قريب أو بعيد ، يتناول النظام الاقتصادى ، والنظام الخلقى ، والنظام الاجتماعى ، وألوانا أخرى من النظم خاصة بالسلم والحرب ، بالدين والعلم .. وبغير ذلك من تفاصيل لا يتم تصور نظام الحكم الا بتصورها كاملة فى حال حركتها ، وفى حال استقرارها

فانجلترا ديمقراطية ، وأمريكا ديمقراطية .. لكن صورة الحكم فى انجلترا ، تختلف عنها فى أمريكا .. انجلترا ملكية ، وأمريكا جمهورية .. انجلترا برلمانية النظم ، وأمريكا نيابية النظم . العلاقات بين الحكومة المركزية والحكومات المحلية فى انجلترا ، غير العلاقات بين الحكومة المركزية فى أمريكا وحكومات الولايات .. القيم الخلقية ليست واحدة فى الدولتين وهذا التباين طبيعى .. مرجعه الى تاريخ الأمة ، والى الأطوار التى مرت بها ، والأحداث التى تعاقبت عليها

وتستطيع أن تقول مثل ذلك عن الدولة الواحدة فى أطوار حياتها المختلفة .. فالفكرة العامة فى النظام الانجليزى اليوم هى بعينها الفكرة العامة فى هذا النظام منذ قرون . لكن ، ما أكبر الفرق بين آثار النظام الانجليزى اليوم وآثاره فى العهد الفكتورى . وما أكبر الفرق بين آثاره فى العهدين وآثاره فى القرن الثامن عشر . ولا شبهة ان هذا النظام سيتطور بعد حين تطورا عظيما مع بقاء فكرته العامة قائمة ، وسيكون التطور أكثر وضوحا فى نواحيه الاقتصادية والاجتماعية

أطوار شتى

وهذا الكلام عن تطور صورة الحكم يصدق كل الصدق على النظام الاسلامى ، فالفكرة العامة فى هذا النظام واحدة .. لكن آثار هذه الفكرة تطورت على القرون أطوارا شتى . وبدت فى صور اختلفت باختلاف البيئة التى حلت بها ، والأحداث التى وقعت أثناءها ، والثورات التى كانت الامبراطورية الاسلامية فى العصور المختلفة مسرحها . فاذا أردنا أن نصور نظام الحكم فى الاسلام تصويرا يقربه من أذهان أهل هذا الجيل ، وجب علينا أن نقف وقفات سريعة عند طائفة من هذه الأطوار

ولعل وقفاتنا هذه تجلو لنا صورة تتمشى فيها الوحدة المستمدة من الحياة الاسلامية ، وان غشيت هذه الوحدة فى كثير من الأحيان مظاهر تجعل من المتعذر محاولة اثباتها بمقارنة الحكم الاسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين وفى عهد آل عثمان مثلا

ويجب أن تكون وقفتنا الأولى عند عهد النبى عليه السلام وخلفائه الأولين . وأول ما يلاحظ أن العهد المكى من حياة رسول الله لم يتعرض للدولة ، ولم يجعلها غرضا من أغراضه .. فقد اقتصرت السور المكية على الدعوة الى التوحيد والى الايمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، والى السمو بالنفس الانسانية عن الانخداع بالدنيا ومتاعها الغرور، لتكون بهذا السمو أقرب الى الله وأدنى الى رحمته . أما العهد المدنى ، فقد تقررت فيه القواعد الأساسية لحياة الأسرة وللميراث وللتجارة وللبيع ، ولكثير مما فصله الفقهاء من بعد تطبيقا لهذه القواعد الأساسية ، واستنباطا من حياة الجماعة التى كانوا يعيشون فيها

على أن هذه القواعد الأساسية لشئون حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، لم تتناول أى تفصيل فى الأساس الذى تقوم عليه الدولة ، ولم تتعرض لنظام الحكم تعرضا مباشرا . والآيتان الكريمتان : « وشاورهم فى

الأمر » ، و « أمرهم شورى بينهم » لم تنزلا فى مناسبات تتصل بنظام الحكم ، وهما بعد لا تصوران نظام الحكم تصويرا تفصيليا

فهل يؤثر الاسلام النظام الجمهورى على النظام الملكى ؟.. لقد بويع الخلفاء الراشدون فى العهد الأول للاسلام على قاعدة من الشورى ليست هى الانتخاب المباشر ، وليس بينها وبين النظام البرلمانى أو النظام النيابى شبه واضح . وأنت تستطيع مع ذلك ، أن ترى فى بيعة الخليفة بعد تشاور أهل الرأى ما يجعله أدنى الى رئيس جمهورية منه الى ملك . أما الدول الأموية والعباسية ، وما تلاهما ، فقد قامت على أساس ملكى لا يمت للمعنى الجمهورى بصلة أو نسب . أفنقول مع ذلك بأن أحد النظامين اسلامى والآخر غير اسلامى ؟.. من العسير أن نقرر ذلك بعد أن انعقد اجماع المسلمين خلال القرون على خلافه

هذا ، ثم ان فكرة الحكم لم تكن مفصلة القواعد فى عهد النبى بعد الهجرة الى المدينة .. وهو صلى الله عليه وسلم ، لم يغير شيئا من النظام العربى فى الحكم على ما بينه فى الأساس الذى كان يقوم عليه فى قبائل البادية ، وفى حضر الحجاز واليمن من تباين واضح .. فقد ترك الرسول هذه الشئون يوجهها الناس فى كل أمة كما اعتادوا أن يوجهوها .. مكتفيا منهم بأن يقبلوا الدين الذى جاء به من عند الله

وكان اذا سئل فى شىء من ذلك أجاب ، أنتم أعلم بأمور دنياكم . فلما استقر سلطان المسلمين بالمدينة ، وآل الأمر فيها الى النبى العربى ، لم يغير صورة الحكم عما كانت عليه . وكل ما حدث ان ما كان ينزل به الوحى من قواعد تخالف ما ألف العرب فى حياتهم ، كان يوجه المسلمين وجهتهم الجديدة فى الحياة ، دون أن يغير المبدأ الأساسى للحكم العربى

كان هذا الحكم العربى يختلف من البادية الى الحضر ، ومن حضر الشمال الى حضر الجنوب . وكان اختلافه يرجع الى اعتبارات اقليمية ، وتاريخية .. تأثرت بها كل بيئة تأثرا يختلف عما حدث فى بيئة أخرى ..

كانت مدن الحجاز تستقل كل واحدة منها بنفسها ، ولا تعرف لغيرها

سلطانا عليها .. كذلك كان شأن مكة وشأن المدينة ، وشأن الطائف . كان يكل واحدة من هذه المدن استقلالها ونظامها ، وكان الحكم فيها متأثرا بالعوامل التاريخية التى تعاقبت عليها ، فكانت السلطة فى المدينة مثلا موضع تنازع دائم بين الأوس والخزرج واليهود

وظل الأمر على ذلك الى أن استقرت كلمة الاسلام ، وعاد الأمر الى النبى العربى . أما مكة ، فقد تقاسمت الأسر الكبيرة فيها شئونها العامة .. كانت أمور الكعبة لبنى هاشم ، وكانت أمور الحرب لبنى مخزوم . وكانت الديات والمغارم لبنى تيم وهلم جرا . ولم يتغير الأمر بمكة بعد فتح النبى اياها ، بل ظلت الكلمة فيها لهذه الأسر الكبيرة

وكان الخلاف فى مبدأ الحكم بين شمال شبه الجزيرة وجنوبها ، أشد منه بين مدن الحجاز .. كانت اليمن قد اندمجت فى وحدة سياسية ، قبل البعث بزمن غير قليل . وترجع وحدة اليمن السياسية الى اعتبارات اقتصادية وأخرى تاريخية واضحة الأثر .. فلم تكن بين مدن الحجاز روابط اقتصادية تقتضى خضوعها لنظام مشترك كنظام اليمن ، أما فى اليمن ، فقد قضت المصالح الاقتصادية المشتركة ، كقيام سد مأرب ، بأن توضع قواعد عامة للحكم يحترمها أهل البيئة جميعا . هذا ، ثم ان اليمن خضعت فى عهود كثيرة لأطوار سياسية لم يعرفها الحجاز .. عدت الحبشة ، وعدت فارس ، على استقلال اليمن .. وأقامت فيها حاكما تخضع جميع أنحائها لسلطانه . كان طبيعيا ازاء هذه الاعتبارات أن يقوم الحكم فى أنحاء اليمن كلها على قاعدة ، معترف بها من أهلها جميعا ، ينفذها الحاكم بقوة القانون ان لم ينفذها الناس عن رضا واختيار

ونظام القبائل فى البادية ، لم يكن يتفق ونظام الحضر فى اليمن أو فى الحجاز بل كان الغزو والسلب تحت امرة رئيس القبيلة أساس الحياة عند البدو . وكان رئيس القبيلة هو القاضى ، وهو القائد الأعلى ، وهو الذى يصرف شئون القبيلة ما جل منها وما دق . وطبيعى أن يستند مثل هذا النظام الى شخصية رئيس القبيلة وأن يتأثر بمنطقه وحكمته

المبادىء الأساسية فى الحكم

لم يغير النبى العربى شيئا من هذه النظم المتباينة فى الحجاز ولم يضع قواعد ثابتة لنظام الحكم الاسلامى .. وكل الذى صنعه ، أنه كان يوفد من عنده الى القبائل أوالمدن التى تعتنق الاسلام من يفقه الناس فى دينهم ، ويعلمهم قواعده ، ويحملهم بذلك على أن ينظموا سلوكهم على موجب هذه القواعد

على أن القواعد الجديدة التى جاء بها الاسلام لتنظيم السلوك والمعاملات ، كانت مقدمة لتنظيم سياسى لامفر من استقراره .. وقد اطمأنت قواعده بالفعل شيئا فشيئا ، متأثرة بالبيئة وأحداث التاريخ . وفى مقدمة القواعد التى تأثر بها النظام السياسى للاسلام الايمان بالله لا اله الا هو ، وبأنه وحده تجب له العبادة . فقد أدى هـذا الايمان الى تقرير قواعد المساواة والاخاء والحرية .. فالمؤمنون جميعا سواسية أمام الله .. تجرى عليهم جميعا سننه بالقسط لا تفرق بين أحدهم وصاحبه ، ولا فضل لعربى منهم على عجمى الا بالتقوى . وهم لذلك انما يجزون بأعمالهم ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . والناس اخوان يجب أن تقوم المحبة بينهم مقام البأس ، بل مقام القانون .. فلا يكمل ايمان أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. والناس أحرار فى كل شىء ، أحرار فى العقيدة نفسها .. فلا اكراه فى الدين ، ولا ايمان الا بعد اقتناع بالحجة والموعظة الحسنة

كانت هذه هى المبادىء الأساسية للحكم فى العهد الاسلامى الأول .. وكانت لذلك واضحة الأثر فى تطور نظام الحكم فى بلاد العرب تطورا ، بدا للعيان على أثر حروب الردة . وقد أكملت القواعد الاقتصادية والاجتماعية هـذه المبادىء ، وأسرعت بالنظام الاسلامى الى أن تتضح صورته ، وأن يستقر .. على أن تطوره ظل متصلا على العصور ، لم يقتصر تأثره على العامل الاسلامى الذى نشير الآن اليه ، بل تأثر أحيانا

بالبيئة وأحداث التاريخ تأثرا بعيدا عن القواعد الاسلامية ، بل مناقضا لهذه القواعد فى بعض الأحيان مناقضة صريحة

وقد بدأت هـذه العوامل الأجنبية يتضح أثرها منـذ العهـد الأول للاسلام .. وكانت أولى المظاهر التى بدت بهذه العوامل الأجنبية ما كان من قتل أبى لؤلؤة ، غلام المغيرة ، عمر بن الخطاب الخليفة الثانى ، ثم ما كان من مؤامرة انتهت الى قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وما حدث بعد ذلك من ثورة شبت نارها وتلظت الحرب بسببها بين على ومعاوية .. فأبو لؤلؤة فارسى ، وكانت مصر ذات يد فى المؤامرة على عثمان . وكانت الشام تؤيد عليا . هذه العوامل الخارجية الآتية من فارس ومصر والشام هى التى نقلت النظام الاسلامى من الخلافة وامارة المؤمنين الى الملك الذى توارثه بنو أمية ، فبنو العباس ، فمن جاء بعدهم من الملوك فى أقطار العالم الاسلامى المختلفة

وهـذه العوامل الخارجية هى التى رسمت الاطار الخارجى لصورة الحكم الاسلامى منذ العهد الأول .. فبعد أن كان هذا الاطار عربيا صرفا فى عهد النبى ، وفى عهد أبى بكر ، وبعد أن كانت البساطة العربية تطبعه ، حمل الفتح الاسلامى عمر بن الخطاب على انشاء الديوان ، ثم أدى امتداد الفتح الى تنظيم الحكومة الاسلامية فى حدود الدين الجديد ، على مثال الحكومات القائمة فى بلاد فارس وفى بلاد الروم

وكان لهذا التطور الأول أثره فى الحياة العامة ، وان لم يبعد بها عن الصورة العربية الى مثل ما حدث من بعد فى العهد العباسى والعهود التى تلته . وظل هذا التطور يتصل من بعد ذلك على الأجيـال ، وظل الفقهاء يستنبطون القواعد والأحكام من الكتاب والسنة والاجماع ، فيعاونون التطور بعلمهم ليبلغ غاية مداه

تطور نظام الحكم

لم يضع النبى العربى نظاما مفصلا للحكومة الاسلامية .. على أن ما جاء به من عند الله تنظيما لقواعد السلوك والمعاملات كان مقدمة لتنظيم سياسى لا مفر من استقراره . وقد بدأ هذا التنظيم السياسى تطوره البطىء من عهد النبى ، ثم كان تطوره أكثر وضوحا عقب حروب الردة . فلما اتسعت رقعة الفتح الاسلامى ، بدأت العوامل الخارجية تحدث أثرها فى هذا التطور . وكان أثر هذه العوامل بعيدا عن القواعد الاسلامية أحيانا ، مناقضا لها كل المناقضة أحيانا أخرى

وكانت النظم القائمة فى الروم وفى فارس هى التى تأثر بها نظام الحكم الاسلامى منذ أنشأ عمر الديوان ، ثم ازداد تأثرا بها فى عهد عثمان . فلما قامت الدولة الأموية ، واتخذت دمشق مقرا لها ، كان طبيعيا أن تزداد هذه العوامل أثرا فى تصوير الاطار الخارجى لنظام الحكم .. على أن الروح العربية ، ظلت سائدة الى حد كبير فى عهد بنى أمية ، لأن الذين كانوا يضطلعون بأعباء الحكم ومناصب الدولة الكبرى كانوا من العرب . فلما انتقل الأمر الى العباسيين ، بدأ الأثر الخارجى يبدو أكثر وضوحا ، لأن الفرس كانوا أصحاب نفوذ كبير فى شئون الدولة

هذا ، ثم ان العهد العباسى امتاز بنقل الفلسفة اليونانية الى اللغة العربية .. لذا بدأت نظريات هذه الفلسفة تعمل عملها فى تطوير الحياة العامة للدولة الاسلامية . صحيح ان الفقهاء والمحدثين ، ومن اليهم ، عنوا فى ذلك العهد باستنباط القواعد والأحكام من الكتاب والسنة ، أو مهدوا بذلك لوضع التشريع الاسلامى . لكن كثيرين من هؤلاء الفقهاء والمحدثين ، وكثيرين من الكتاب والمفكرين ، كانوا من غير العرب ، فكان طبيعيا أن تؤثر وراثتهم العقلية فى أحكامهم وفى منطقهم . ثم ان النظام الذى كان قائما فى فارس ، وفى بلاد الروم ، يجعل لولى الأمر سلطانا مطلقا ، فكان

من أثر ذلك أن تطورت الفكرة الأساسية فى الحكم الى النقيض لما كانت عليه فى أول العهد الاسلامى . ثم كان من أثره أن شاعت فكرة هذا الحكم المطلق متنقلة من أمير المؤمنين الى الحكام والولاة ، والى من دونهم من سائر من يتولون منصبا من مناصب الدولة ذا أثر فى توجيه حياة الناس ومنافعهم

فكرتان ! ..

لما بويع أبو بكر بالخلافة خطب الناس فقال : « لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أســأت فقومونى .. أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » وهذا كلام صريح فى أن الخليفة وكيل عن الأمة ، وان للأمة وهى الأصيل أن تراقبه وأن تقومه ، وأن تطيعه فى حدود توكيله . وكان عمر بن الخطاب يقول للناس : « من رأى منكم فىَّ اعوجاجا فليقومه » فيقول له أحد الناس : « والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا »

أما فى العهد العباسى ، فكان أمير المؤمنين يخطب الناس بأنه ظل الله على الأرض ، وبأن الله وضع فى يده مفاتيح خزائنه فيها .. فان شاء أن يفتحها فتحها !.. وان شاء أن يغلقها أغلقها . وكانت نظرية الحق الالهى أو الحق المقدس للملوك نظرية معترفا بها منذ العهد العباسى ، كما اعترف بها بعد ذلك فى أمم أوروبا المسيحية . وأنت ترى من ذلك مبــلغ التناقض بين الفكرتين .. الفكرة العربية كما فهمها أبو بكر وعمر ، وهى التى تتفق مع ما نزل فى القرآن على محمد « انما أنا بشر مثلكم » والفكرة التى أخذ بها ملوك بنى العباس من أنهم يستمدون سلطانهم من الله لا من الناس ، وانهم محاسبون أمام الله ، غير محاسبين أمام الناس

ليس عسيرا تفسير هــذا الفارق بين الفكرتين .. فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، كانوا أوليــاء على قومهم باختيار قومهم ومبايعتهم اياهم ، أما الملوك الذين جلســوا على عرش المملكة الاســلامية فكانوا يرون أنهم تسنموا هذه العروش بحق الفتح . أولئك اذا ولاهم الشعب فهم وكلاؤه ،

وهؤلاء غلبوا الشعب على أمره .. وتسلطوا بقوة البأس على رقابه ، فهم سادته وحكامه . وأهل الرأى الذين بايعوا أولئك كانوا من العرب الذين نزل الدين على رجل منهم فهم سواسية ، وأهل الرأى ممن حول هؤلاء كانوا حاشية وبطانة يقولون لصاحب السلطان سمعنا وأطعنا ، فهم تبع . وطبيعى أن يكون الشعب بعدهم تبعا لهم .. بذلك تطورت الفكرة العامة لنظام الحكم الاسلامى من تلك البيعة الحرة عن طواعية ورضا الى هـذا السلطان المطلق الذى أظل العالم الاسلامى خلال العصور منذ العهـد الأموى

أثر التطور فى مبادىء الاسلام

هل أثر هذا التطور فى الفكرة العامة للحكم على المبادىء التى جاء بها الاسلام لتكون أساس حضارة العالم .. ذلك أمر لاريب فيه .. خذ الرق مثلا ، كان الرق شائعا قبل الاسلام شيوعا فاحشا . فلما جاء الاسلام حد منه ، وجعل الرقيق أسير الحرب الذى لا يفتدى ، أو لا يقبل فيه فداء . ومع ذلك فتح باب العتق على مصراعيه ، وجعل فك الرقبة مما يتقرب به المرء الى الله ثم جعل الرقيق فى مقام كريم .. على ان التطور الذى حدث فى أمر الحكم ، رد شئون الرقيق الى مثل ما كان عليه قبل الاسلام أو ما يقرب من ذلك ، فأصبح الرقيق تجارة رائجة ، ولم يقف الرق عند أسرى الحرب ، بل تعدى ذلك الى خطف الغلمان والفتيات ، واعتبر هذا الخطف غزوا

ليس الرقيق الا مثـلا نسوقه للدلالة على الأثر الذى أدى اليه تطور الفكرة العامة للحكم فى أمر المبادىء السامية التى جاء بها الاسلام لتكون أساسا لحضارة العالم . ولو أننا أردنا أن نتقصى هـذا الأثر فى حيـاة الجماعة ، لما وسعنا هذا المقام . لكننا نقرر أنه تنـاول الأسرة ونظامها ، وتناول الحرية العامة فى مختلف صورها ، وتناول الوجود الانسانى كله . لم تتقرر للمرأة حقوق فى حضارة العالم ما قرره لها الاسـلام .. جعل

للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف ، وجعل للرجال عليهن درجة مقابل ما ألقى على الرجال من أعباء أعفى النساء منها . المرأة المسلمة حرة حرية الرجل .. حرة فى ذاتها ، حرة فى معاملاتها .. يجب لها من احترام الرجل مثل ما يجب للرجل من احترامها . لا يملك الرجل من أمرها الا ما يوحيه هذا الاحترام وهذه الحرية ، فى حدود مصلحة الأسرة ومصلحة الجماعة

ومع ذلك لم يلبث هـذا التطور الذى أحدثتـه العوامل الخارجية فى الحياة الاسـلامية أن ردها الى ما يقرب من مكانها عنـد الرومان وعند الفرس .. ضرب عليهـا الحجاب ، وحرمت أقدس حق لها .. حرمت حريتها فى المتاع الشريف بالحياة . بذلك انقلبت نظرة الرجل اليها فسقطت عنهـا كرامة الانسان ، وصارت متاعا للرجل يلهو به ويتحكم فيه تحكم السيد فى الرقيق ، وتحكم أمير المؤمنين فى رعيته . صارت المودة والرحمة اللتين ورد ذكرهما فى القرآن ، على أنهما أساس الصلة بين الرجل والمرأة تفضلا من الرجل على أحد الضعيفين ، المرأة والرقيق . ووجد الفقهاء فيما وضع من الأحاديث سندا يؤيدون به هذا التطور الذى جنى على الأسرة وعلى الأبناء وعلى سعادة الأمة الاسلامية وتقدمها

الحكم المطلق

ثم ماذا ؟ ! .. ثم نشأ عن هذا التطور ما كان أبعد أثرا فى حيـاة العالم الاسلامى كله .. هذا الحكم المطلق الذى جعـل لأمير المؤمنين ما كان لأمبراطور الروم ولعاهل الفرس من سلطان غير محدود .. أغرى كل حاكم فى ولاية اسـلامية بأن ينتقض على أمير المؤمنين كلما استطاع أن ينتقض عليه ، ليكون له بذلك حقوق أمير المؤمنين فى هذا السلطان المطلق ..

فاذا استطاع أمير المؤمنين من بعد أن ينكل بمنافسـه وأن يقضى عليه فبها ، والا تنافس ذوو السلطان وأذاقوا الأمة ألوانا من التضحية لمجدهم الذاتى لا لمجد الأمة ، ولا لمجد الاسلام . بذلك عم الانتقاض أنحاء العالم الاسلامى ، وبدأ التدهور الذى انتهى اليه هذا التطور

وكان من أثر هذا التدهور ، أن زالت فكرة الامبراطورية الروحية التى تربط المسلمين جميعا بآصرة التقوى والايمان بالله وحده ، وانكار الخضوع لغير الله .. فصارت الامبراطورية الاسلامية فى طور الامبراطوريات المتداعية الركن المهيضة الجناح . وكيف لأمة أو لأمبراطورية أن تقاوم التدهور والانحلال ، اذا غاض ماء الحياة من مثلها الأعلى وأصبحت لا تعرف التضامن ولا تعرف الاعتصام بحبل الله .. بل صارت الى مثل مصير الحيوان ، لا هم له الا أن يلتمس كل فرد من أفرادها الرزق لنفسه ، والقضاء على أخيه

وأنت ترى هذه الظاهرات كلها واضحة ، اذا تتبعت تاريخ الأمم الاسلامية منذ منتصف العهد العباسى .. بل انك لترى مقدماتها تستشرى فى كيان الأمة قبل ذلك ومنذ بداية العهد الأموى ، بل منذ قتل أبو لؤلؤة عمر ، ومنذ اتنهت المؤامرة التى دبرت بقتل عثمان . صحيح ان هذه المقدمات لم يبد أثرها الا بعد قرنين أو ثلاثة قرون من قيام الاسلام .. لكنها مع ذلك هى المقدمات التى أنتجت ما نلمسه من أثر فى حياة الأمم الاسلامية منذ منتصف العهد العباسى

التنافس والتطاحن

وأنت تتلو فى القرآن : « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم » وتتلو : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . وتتلو فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . مع ذلك ترى فى تاريخ الأمم الاسلامية منذ مئات السنين من أسباب التنافس — بل التطاحن — ما لا يتفق فى شىء مع هذه المعانى السامية .. كم من أمير أو ملك فى أمة اسلامية ، تحالف مع الصليبيين أو مع التتار ليكون واياهم ألبا على غيره من ملوك المسلمين وأمرائهم !..

وأنت ترى القرآن الكريم يفرض على الذين آتاهم الله من فضله ، أن يؤتوا الزكاة وأن يؤدوا الصدقات الى أهلها ، ويقرر فى أموال ذوى المال

حقا معلوما للسائل والمحروم ، ويقيم بذلك مزاجا بين الفردية التى تحفز العامل للسعى وكسب الرزق ، وبين الاشتراكية التى تكفل للجماعة الطمأنينة والاستقرار بسد عوز المعوز وحاجة المحتاج . ومع ذلك نرى عصور التدهور التى أشرنا اليها تشهد من آثار الأنانية ومظاهر الاثرة ما يناقض هذه المثل العليا كل المناقضة

وأنت ترى فى القرآن الكريم من معانى التعاون ، ما لا تشهد له أثرا فى العهود المتأخرة الا بقدر ما يستدر به الرجل عطف ذوى السلطان عليه.. فان رأى ذوو السلطان فى تشييد المساجد ما يتقربون به الى الله ، تقرب الناس اليهم بتشييد المساجد ، وان رأى ذوو السلطان الانصراف الى اللهو ، تنافس الناس فى محاكاتهم وتقليدهم .. بذلك صغرت النفوس ، وضعفت القلوب ، وهانت الكرامة الانسانية .. وأصبح أمر الناس مظاهرة لا تنطوى على حقيقة ولا مأرب لهم منها الا ارضاءهم لأنانيتهم واشباعهم لغرورهم

أثر الحضارة الغربية

ظل الأمر كذلك حتى بدأت الحضارة الغربية تظل العالم بنفوذها ، وتوقظ الراقدين من سباتهم .. وكان ذلك منذ النصف الأخير للقرن الثامن عشر المسيحى . ومن يومئذ ، بدأت الأمم الاسلامية تفيق شيئا فشيئا .. وينظر حكماؤها ومفكروها فيما آل اليه أمرها . أحق انها هوت الى المنحدر الذى هوت اليه بسبب عقائدها ، أم بسبب نظام الحكم فيها ؟ .. وهل يرجع هذا النظام الى أصل من الدين ، فلا سبيل الى الخروج عليه الا بالخروج على الدين ؟.. وهل هذه الحضارة الغربية بدعة منكرة فى نظر الاسلام ، أم أن ما فيها من خير يقره الاسلام ولا ينكره ؟..

هذه أمور تناولها أولئك الحكماء والمفكرون بالبحث والنظر .. وفيما كانوا ينظرون ، كان غزو الحضارة الجديدة يسير بأسرع من تفكيرهم ومن نظرهم ، وكانت نظم الحكم الغربية تنتقل مع هذا الغزو الى الأمم

الاسلامية المختلفة . وكان من المسلمين من يقول أن هذه النظم التى كفلت سبق الأمم الى مضمار الحضارة هى وحدها التى تتفق مع روح الاسلام وتوائم تعاليمه

على أن أحدا من فقهاء المسلمين فى العصر الحديث ، لم يتجه نظره الى تصوير الفكرة الاسلامية فى الحكم تصويرا كاملا ، وتطبيق هذا التصوير على الأمم الاسلامية فى هذا الزمن الذى نعيش فيه . لم يتجه أحدهم ليقيم مذهبا كاملا بين الحدود والتفاصيل ، يضع كل شأن من شئون الجماعة فى المكان الواجب له من نظام الحكم فى الاطـار الاســلامى الصحيح . قام جماعة من علماء الغرب بتصــوير الاشتراكية المسيحية ، ولست أعرف أحدا قام بتصوير الاشتراكية الاسلامية فى مذهب كامل . هذا ، والتفكير الاسلامى القديم غنى بالمادة التى تكفى لاقامة هــذا المذهب الكامل فى هذا الموضوع كغناها بالمادة التى تكفى لاقامة مذهب كامل لنظام الحكم على الأساس الاسلامى فى صفاء جوهره

أفأستطيع أن أصور هذا النظام الاسلامى فى الحكم بما يتفق وما عليه العالم فى هذا العصر.. ذلك ما سوف يكون بيانه فى الصفحات التالية ..

الاسلام ومبادىء الحضارة الانسانية

سبق أن أشرنا الى أن الاسلام لم يضع للحكم نظاما مفصلا ، ولكنه وضع قواعد للسلوك فى الحياة وللمعاملات بين الناس ، كانت مقدمة لنظام للحكم تطور على الزمان .. وتأثر أثنـاء تطوره بعوامل اسلامية وأخرى خارجية ، تباينت ومبادىء الاسلام فى بعض الأحيان أشد التباين . وهذا الوضع الشاذ هو الذى أدى الى تدهور الأمم الاسلامية بعد قرون معدودة من انتشار الحضارة الاسلامية فى ربوع كثيرة من العالم

ولئن لم يضع الاسلام للحكم نظاما مفصلا ، فقد وضع مبادىء أساسية لحضارة الانسانية من شأنها أن تتطور على الزمان ما تطور علم الانسان وفنه وتفكيره . والأساس الاسلامى للحضارة الانسانية روحى ، يدعو الى حسن ادراك الانسان صلته بالوجود ومكانه منه ، والى البلوغ بهذا الادراك حد الايمان .. وعلى هـذا الأسـاس الروحى ، يجب أن ينظم الانسان سلوكه فى الحياة على مبادىء الأخوة والمحبة والبر والتقوى .. وعلى أساس هـذه المبادىء يجب أن ينظم الحياة الاقتصـادية للجماعة الانسانية

عقيدة التوحيد

كيف نستخلص من هذه المبادىء التى وضعها الاسلام أساسا للحضارة ، ما يمكن أن يكون نظاما للحكم صالحا لتحقيق أغراضـها ؟.. نستخلص هذا النظام من تاريخ الاسلام نفسه ، ونستخلصه كذلك من تاريخ الأمم المختلفة على تباين العصور . فقد ثبت أن اختلاف العقيدة الأساسية ، كان دائما موضع قلق فى الأمة الواحدة .. لهذا دعا الاسلام الى وحدة العقيدة على أساس بسيط كل البساطة ، يسيغه العقل الانسانى فى مختلف الأمم وفى مختلف الأزمان . يقول تعالى : « ان الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

وأنت ترى التوحيد عقيدة يؤمن الناس بها فى مختلف أقطار الأرض ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .. اليهود موحدون فى أساس عقيدتهم ، ومنهم موحدون جهرة . وفى كثير من الأديان المعروفة فى آسيا ، تعلو فكرة التوحيد على كل فكرة أخرى .. أنت تراها فى البوذية ، وفى غير البوذية من الأديان . ولا عجب أن يكون ذلك ، وفكرة التوحيد من البساطة والوضوح بما يدعو اليها كل عقل وكل جنان

ثبات سنة الكون

هذا هو المبدأ الأول للحضارة الاسلامية .. والمبدأ الثانى هو ثبات سنة الكون وعدم تعرضها للتغير . وقد وردت فى هذا المعنى آيات كثيرة ، تنص على انك لن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنته تحويلا . وقد انتهى العلم فى عصرنا الى تقرير هذا المبدأ فى أمر الاحياء وغير الاحياء على السواء ، وفى أمر الجماعات وأمر الأفراد كذلك . ومن خير ما وقعت عليه فى هذا المعنى ، ما ذكره الفيلسوف الفرنسى « هيبوليت تين » من أننا لو استطعنا أن نبلغ من طريق العلم معرفة شئون الاحياء بالدقة التى نعرف بها شئون غير الاحياء ، لاستطعنا أن نعرف مصائر الأفراد والأمم بالدقة التى نعرف بها مواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر ، ولأتيح لنا يومئذ أن نقرر على نحو علمى ثابت مصير الانسانية بعد قرون وقرون

المساواة بين الناس

وحدانية الله وثبات سنته فى الكون ، يقتضيان المساواة بين الناس أمام الله ، وخضوعهم على السواء لسنته جل شأنه .. وهذه المساواة هى المبدأ الثالث من مبادىء الحضارة الاسلامية ، وعلى أساسها أقام العرب صلاتهم بغيرهم من الأمم التى اتصل الغزو بينها وبينهم فى العهد الأول .. فالمؤمن أخ للمؤمن ، يتساوى معه فى الحق والواجبات .. لا فرق بين عربى وعجمى . ومع ذلك لم يفرض الاسلام على الناس بالسيف ، بل بقيت حرية الاعتقاد وحرية الرأى مطلقة من كل قيد . بذلك طبقت الآيتان

الكريمتان : « لا اكراه فى الدين » و « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » تطبيقا صادقا

وغاية ما فرض على الذين لم يعتنقوا الاسلام ، أن يدفعوا الجزية ليكونوا فى حماية المسلمين يتولون دون سواهم القيام بأعباء الحرب ، والدفاع عن كيان الدولة وذمارها .. على أن عمر بن الخطاب ، لم يأب على من اطمأن الى ولائهم حين الحرب واشتراكهم فيها فى صفوفه ، أن يعفوا من الجزية وأن يتساووا مع المسلمين فى الأعباء العامة

عقيدة التوحيد ، وثبات سنة الكون ، والمساواة بين المؤمنين مساواة قائمة على الأخاء أكثر من قيامها على التنافس .. مبادىء اسلامية مقررة ، يشترك فيها الرجل والمرأة اشتراك مساواة تامة . فقد وجه القرآن الكريم الحديث للرجال والنساء فى كل أمر من الأمور ، وجعل على الجنسين واجبات متساوية . وهذه المساواة سبق بها الاسلام الشرائع الحديثة . وهى تعتبر بعض قواعد الحضارة الانسانية كما صورها الاسلام .. ويجب لذلك أن تكون من أسس النظام الاسلامى للحكم ، يقررها التشريع وتجرى على موجبها قواعد الخلق . واذا كان الأمر فيها قد تغير بعد قليل من العهد الاسلامى الأول ، فانما مرجع ذلك الى العوامل التى ناقضت القواعد الاسلامية ، والتى أشرنا اليها من قبل

هذه المبادىء وما يتصل بها من قواعد الخلق تعتبر فى نظر الاسلام واجبات وثيقة الاتصال بايمان الانسان بالله . واذا كانت حضارة عصرنا الحاضر تعتبر الكثير منها حقوقا للانسان ، له حرية التمتع بها ما شاء .. فان الاسلام يراها فروضا واجبة لا يصح للانسان أن ينزل عنها أو يتهاون فيها . هى حقوق له ازاء أمثاله ، وواجبات عليه ازاء بارئه جل شأنه .. هو خلقه ليستمتع بها ، واستمتاعه الصحيح بها عبادة لله . فاذا هو نزل عنها أو قصر فيها ، كان مسئولا أمام الله فى هذه الدنيا ، وكان مسئولا أمامه فى الآخرة ..

وهذه المسئولية ، هى أساس الجزاء . والجزاء الأوفى عند الله ، هو الذى

يجعل المسلم يسمو بالقيم الخلقية سموا كبيرا انه لا يخاف جزاء الشـارع عنها فى هذه الحياة ، لكنه مع ذلك غير ناج من جزاء الله المطلع على خافية الأنفس وما تخفى الصدور . من ثم كانت الأقدار الخلقية جليلة المقام فى الحياة الانسانية لدى الجماعة الاسلامية . ولذلك من غير ريب ، أثره البالغ فى حياة الجماعة وفى نظامها وفى الحكم وآثاره

والاسلام يقر التملك والأسرة والميراث ويقررها .. ويرى بعضهم لذلك أنه يتفق فى اتجاهه الاقتصادى مع المذهب الفردى .. وهذا خطأ ، فالاسلام حين يقرر التملك والأسرة والميراث .. يجعل فى مال ذى المال حقا معلوما للسائل والمحروم ، ويجعل فرضا على الجماعة أن تكفل للفرد حياته . ومن الخطأ الظن بأنه لذلك يتفق فى اتجاهه الاقتصادى مع المذهب الاشتراكى.. انما الاسلام مزاج من المذهبين ، يزاوج بينهما فى ظل قواعد الخلق المتصلة بالايمان ذلك الاتصال الوثيق الذى أشرنا اليه

نظرية الواجب

يجعل الاسلام فرضا على الجماعة أن تكفل للفرد حياته .. وهذه الكفالة تبدأ من يوم ولد ، وتظل الى يوم يموت . وهى لا تقف فى حدود القوت لمن لا يجد القوت ، بل هى تتناول كل حاجات الفرد الانسانية على اختلاف صورها .. فمنذ عهـد النبى ، كان تعلم الناس وتفقههم فى دينهم بعض واجبات الجماعة للفرد . وظل الأمر كذلك فى مختلف العهود حتى فى عهود الانحلال والتدهور . فحيثما أقيم مسجد للعبادة أقيمت معه مدارس يتعلم فيها أبناء المسلمين فتية وفتيات ، واعتبر ذلك واجبا لا محيد عنه .. وأمر الصحة كأمر التعليم .. كانت تقام المستشفيات الى جوار المساجد ، وعلى مقربة منها — وكان الناس جميعـا يؤمونها — لأن الصحة العامة كانت بعض واجبـات الدولة للأفراد ، كما كانت بعض واجبـات الأفراد على أنفسهم لله

نظرية الواجب هذه أساسـية فى النظام الاسلامى ، وهى مستمدة من

مسئولية الانسان أمام الله أولا وقبل كل شيء . الانسان مسئول أمام الله عن كل أعماله ، كبيرها وصغيرها ، دقيقها وجليلها .. مسئول عن نواياه مسئوليته عن أعماله . فالنوايا مظاهر نفسية يطلع الله عليها ، كما أن الأعمال مظاهر مادية يطلع الله ويطلع الناس عليها . والجماعة الانسانية مسئولة أمام الله كمسئولية الفرد سواء بسواء .. عليها واجبات للفرد وواجبات لنفسها ، ان قصرت فى أدائها لقيت جزاءها من الله كما يلقى الفرد جزاءه من قضائه .. والقائمون بأمر الجماعة هم الذين تقع هذه المسئولية على عاتقهم أولا وبالذات

وتقرير نظرية الواجب على هذا النحو ، يجعل ما نسميه فى التفكير الحديث حقوقا ، بعض هذا الواجب علينا أفرادا وجماعات ، ولهذا لا نملك النزول عنه . فالحرية العقلية واجب ، لأننا اذا نزلنا عنها ضللنا طريق الهدى الى الله وعجزنا عن معرفة سننه فى الكون . والدفاع عن حرية الغير واجب ، لأن الاعتداء عليها منكر ، ورسول الله يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يقدر فبلسانه ، فان لم يقدر فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان .. » وحب الغير واجب لأن المرء لا يكمل ايمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. وفعل الخير واجب القادر عليه لأنه المظهر الأول لحب الغير .. وتضامن الجماعة واجب لأنه الكفيل بحريتنا فى أداء واجباتنا وابراء ذمتنا منها أمام الله وأمام الناس ، وهو الكفيل لذلك بسعادة الفرد والجماعة فى الدنيا والآخرة

❊❊❊

حسبى ما قدمت من مبادىء جوهرية قررها الاسلام أساسا للحضارة الانسانية .. فليس يتسع المقام لسرد سائر المبادىء ، وهو لا يتسع لتفصيل الفكرة فى أى من المبادىء التى قدمت . وهذا الذى قدمت يرسم أمام النظر اطارا عاما للفكرة الاسلامية فى الحياة ونظامها .

ونظام الحكم فى الاسلام هو النظام الذى تتحقق فى ظلاله هذه الفكرة

العامة ، كما تتحقق المبادىء التى تقوم عليها الحضارة الانسانية فى تطورها الدائم نحو الكمال

الحكومة الاسلامية والتشريع

وقد رأينا نظام الحكومة الاسلامية اختلفت صورته .. فهو فى عهد الخلفاء الراشدين غيره فى عهد بنى أمية ، وهو فى هذين العهدين غيره فى عهد بنى العباس . ومن غير الميسور أن نختار نظاما من هذه النظم فندعو للعودة اليه .. فنظام الحكم لا يتأثر بالمبادىء وحدها ، بل يتأثر كذلك بالبيئة التى يقوم فيها ، وبالأحداث التى تمر بهذه البيئة ، وبالتطور الفكرى والعلمى الذى ينتهى الناس اليه

وقد تأثر نظام الحكم فى الممالك الاسلامية بهذه العوامل تأثرا بينا ، ناقض بعض المبادىء التى أشرنا اليها فى هذا الحديث مناقضة ظاهرة .. فليس طبيعيا أن نسمى هذا النظام نظاما اسلاميا سليما .. وليس طبيعيا كذلك أن نعود بنظام الحكم الاسلامى الى الفكرة العربية الأولى ..

فالتطور الذى مر به العالم خلال القرون الثلاثة عشر الأخيرة يجعل هذا العود غير مستطاع . لكن هذا ليس معناه أن نظام الحكم الاسلامى لا يستطاع تطبيقه فى عصرنا الحاضر ، وانما معناه اننا يجب أن نجعل هذا النظام قائما فى حدود تفكيرنا ، محققا فى نفس الوقت للفكرة العامة وللمبادىء التى وضعها الاسلام أساسا للحضارة الانسانية لا يحيد عنها ولا يجرى على نقيضها

ولن يعترض أحد بأن مراعاة التطور الفكرى والعلمى الذى انتهى الناس اليه والملاءمة بينه وبين النظام الاسلامى للحكم فيه ما يخالف المبادىء الاسلامية ، ما دام النظام الذى يقوم تكون غايته تحقيق هذه المبادىء ، وما دام النظام نفسه يقوم فى حدود هذه المبادىء ..

خذ مبدأ المساواة مثلا .. أشرنا الى أن مبادىء الاسلام الأساسية لقيام الحضارة الانسانية ، تفرض تساوى الناس جميعا أمام الله ، وانطباق سنته

جل شأنه فى الكون على الجميع على السواء . هذا المبـدأ يجعل للناس جميعا حقا ثابتا فى الاشتراك فى الحكم عن طريق الشورى ، ويجعل الحاكم والمحكوم متساويين أمام القانون وأمام ما أمر الله به وما نهى عنه . وذلك قول أبى بكر حين بويع بالخلافة : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » فكل نظام تراعى فيه هذه المساواة ، وتكون وسيلته الشورى نظام اسلامى .. سواء أكان هذا النظام من نوع خلافة الراشدين ، أم من نوع امارة المؤمنين على عهـد الأمويين ، أم من نوع آخر تتحقق به هذه المساواة

ومثل آخر نسوقه ، وفيه من الدلالة على مراعاة التطور ما يشهد بأن النظام الاسلامى لا يقف فى سبيل كل تطور تمليه مصلحة الجماعة ، ما دام متفقا مع مبادىء الاسـلام العامة .. فالأسرة هى الحجر الأول فى بنـاء الجماعة الاسلامية كما قدمنا ، لكن الأسرة الاسلامية تقوم على أسـاس المودة والرحمة ، ولا تقوم على أساس جامد من الاكراه الذى يشقى به الناس .. فاذا خيف الشـقاق بين الشريكين الذين يكونانها ــ الزوج والزوجة ــ وجب العمل على ازالة هـذا الشقاق .. فان أمكنت ازالته فذاك ، والا افترق الزوجـان على ما فى ذلك من مضرة هى دون مضرة الحياة القائمة على أساس من الشقاق . ولهما أن يتراجعا ليعيدا للأسرة كيانها . وفرقة الزوجين هى الطلاق .. والطلاق مرتان : فامساك بمعروف أو تسريح باحسان .. وذلك لتيسير المراجعة ..

ومع ذلك ، رأى عمر بن الخطاب أن الناس أسرفوا فى الطلاق الثلاث دفعة واحدة ، فأجازه واعتبره عقوبة لهم على تسرعهم وعلى خروجهم على أمر كان لهم فيه أناة .. وظل الأمر فى شـأن الطلاق على رأى عمر قرونا كثيرة . وها نحن أولاء نعود الى ما كان الأمر عليه فى حياة رسول الله ، وفى حيـاة أبى بكر ، فلا يقع الطلاق ثلاثا الا واحدة ليتراجع الزوجان وتستقر الأسرة

والأمر فى تعدد الزوجات كالأمر فى الطلاق .. تطور من التقييد الذى

جاء فى القرآن الى الاطلاق من القيد فى عهد التدهور والانحلال .. وهو الآن يعود الى ما يتفق والمبدأ الذى أقره الاسلام دون حاجة الى تشريع خاص ، وهو وحدة الزوجة الا لحاجة ماسة

وأود قبل أن أختم هذا الحديث ، أن أذكر أن نظام الحكم لا يقصد به التفاصيل التى يراها بعضهم كل شىء .. انما يقصد بنظام الحكم فى الاسلام تحقيق الفكرة السامية والمثل الأعلى والمبادىء العامة التى أرادها الاسلام أساسا للحضارة .. فاذا حقق النظام هــذا الغرض ، وان تجاوزته بعض التفاصيل ، كان النظام الاسلامى القدير على التطور مع تقدم الانسانية فى تفكيرها وعلمها وفنها . وان هو وقف عند التفاصيل دون تحقيق الغرض الأسمى ، كان نظاما جامدا متداعيا كالنظم التى قامت فى عهود الانحلال ..

وبَعُد بذلك عن أن يكون نظام الحكم فى الاسلام ، كما أراده صاحب الوحى للاسلام أن يكون

والواقع أن نظام الحكم شىء ، والتشريع والقانون شىء آخر .. نظام الحكم هو الاطار العام الجدير بالثبــات والاســتقرار لتحقيق الأغراض الانسانية السامية ، فلا تعتريه الغير الا اذا عجز عن تحقيق هذه الأغراض.. أو كان ادخال التعــديل عليه كفيــلا بأن يجعله أدنى الى تحقيقهــا . أما التشريع والقانون فيتطوران فى حدود هذا النظام المستقر على أنهما أداة الحركة والنشــاط . والنظام الاسلامى الذى أردنا فى هذا الحــديث أن نصوره هو النظام الذى تتحقق بقيامه المبــادىء الاسلامية والمستمد من الايمان الحق بالله ، وبثبات ســنته فى الكون ثباتا ندركه بعقولنا الحرة وتفكيرنا المتصل ، وأن نتعاون فيما بيننا على أن يحب أحدنا لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يؤدى الفرد واجبه لله وللجماعة ، وأن تؤدى الجماعة واجبها لله وللأفراد جميعا

الاشتراكية والديموقراطية فى الإسلام

— ١ —

الاشتراكية الإسلامية

❋ وجهة الاشتراكية الاسلامية
❋ أسس الاشتراكية الاسلامية
❋ تطبيق نظام الاشتراكية
❋ الامم الاسلامية فى العصر الحديث

وجهة الاشتراكية الاسلامية

لم يطبق النظام الاشتراكى فى الحياة الاقتصادية لأمة بأسرها الا فى هذا العهد الحديث .. وذلك منذ أصبحت الشيوعية النظام الأساسى لروسيا السوفيتية . والشيوعية صورة من صور الاشتراكية الكثيرة المتباينة .. وهى أكثر هذه الصور تطرفا وأشدها امعانا فى انكار الملكية الفردية . وهذه الشيوعية تناقض المبادى الاسلامية كل المناقضة .. فهى تنكر الملك والميراث والأسرة ، والملك والميراث والأسرة نظم جوهرية فى الحياة الاسلامية . هذا التباين .. بل هذا التناقض الصريح بين الاسلام والشيوعية ، يقتضينا ونحن نبحث فى الاشتراكية الاسلامية أن ندع الشيوعية جانبا ، وأن ننظر فيما عداها من صور الاشتراكية حتى نرى أوجه الاتفاق وأوجه الخلاف بين هذه الصور والاشتراكية الاسلامية

ويجمل بنا قبل أن نواجه هذا البحث أن نذكر أن الفكرة الاشتراكية التى نشأت منذ ألوف من السنين ، انما نشأت صيحة ألم لما بين الناس من التفاوت فى حظهم المادى من الحياة .. وانها كانت ترمى دائما الى محو هذا التفاوت حتى تقضى على نتائجه الاجتماعية ، وفى طليعتها التباغض والحسد والنضال المستتر حينا.. الواضح حينا آخر، وحتى تزيل ما يشعر به المحرومون من ألم الحرمان

ولقد طالما تحدث العلماء والكتاب الاشتراكيون عن هذا التفاوت فى حظوظ الناس ، ونسبوه الى فساد النظم التى تقوم الجماعات الانسانية عليها . وليس يحدثنا التاريخ الذى نعرفه عما كان قبل أفلاطون من صور الاشتراكية .. ولذلك ألف كثيرون أن ينعتوا أفلاطون « أبا الاشتراكية » ومن يومئذ الى يومنا الحاضر لم يفتأ الاشتراكيون يتحدثون فى هذا التفاوت فى وسائل ازالته ، ويقيمون من المذاهب ويقترحون من النظم ما يرونه كفيلا بتحقيق الغاية التى يرمون اليها

والأكثرون من العلماء والكتاب ينظرون الى المسألة من ناحيتها الاقتصادية البحتة . والأمر كذلك فى عهدنا الحديث بنوع خاص . ولا ريب فى ذلك ، والنظام الاجتماعى فى هذا العهد يقوم على أساس اقتصادى صرف ، وعلاقات الناس بعضهم ببعض ، وعلاقات الأمم بعضها ببعض ، تخضع خضوعا تاما لما بينها من صلات اقتصادية .. بل لا عجب فى ذلك وقد أقام كثير من الفلاسفة قواعد الخلق على أساس اقتصادى ، وقد نادى كثيرون بأن تاريخ الانسانية لا تفسير له الا فى نظمها الاقتصادية ، وأن حضارات العالم فى الأزمان المختلفة انما تكيفت بتطور نظم العالم الاقتصادية . لا مفر لمن يجعل هذه الناحية وجهة نظره للحياة ، ثم يكون من دعاة الاشتراكية ، أن يجعل غاية همه فى الدعوة الى ازالة ما بين الناس من التفاوت المادى ، ليرتفع الظلم عن عاتق الأكثرين ، ولتكون الكثرة من الناس أكثر بالحياة سعادة ، وعنها رضا

ولقد أثبت تعاقب القرون ان ازالة هذا التفاوت أمر غير مستطاع ، وان اقامة الاشتراكية على أساس من المساواة بين الناس فى حظوظهم المادية ، لا يزيل الظلم الذى يذكرونه .. فمقدرة الناس على العمل فى الحياة تتفاوت ، ومتاعهم بنعم الحياة يتباين .. ففيهم القوى والضعيف ، وفيهم الصحيح والمريض ، وفيهم المتهالك على لذائذ العيش ومن يرى الزهد فيها لذة تفوق كل لذة .. ولا سبيل الى التسوية بين هؤلاء جميعا ، وعلى أساس يرضى الجميع عنه

الديمقراطية الحقة

ثم انك لا تستطيع أن تنكر على الفرد ذاتيته ، ولا تطمع فى أن تصل من الجماعة الى العدل المطلق .. لابد اذا من مزاج يحقق خير الجماعة وحرية الفرد فى ظل العدل الانسانى . وتحقيق هذا المزاج يجب أن تراعى فيه ذاتية الفرد وكيان الجماعة لا من الناحية المادية وحدها بل من النواحى الانسانية المختلفة .. ومن بينها الفطرة ، والعاطفة ، والهوية ، ومن بينها الغرائز الاجتماعيـة التى تقيم الأسرة ، وتقيم المدنيـة ، وتقيم الجماعة

الانسانية بوجه عام

وهذا المزاج هو ما قصد اليه الاسلام .. فهو لم ينكر ذاتية الفرد ، ولم ينكر حقه فى التملك ، ولم يغفل الغرائز المختلفة التى تحركه فى الحياة .. لكنه قدر الى جانب ذلك أن الجماعة يجب ألا تبلغ من حماية الذاتية الفردية حدا يزيد القوى قوة والضعيف ضعفا ، ويكون لذلك سببا فى تداعى الجوانب السامية فى نفس الانسان .. جوانب الايثار والمحبة ، وما اليها من عواطف أصيلة فى النفس هى قوام الأسرة وهى قوام الجمعية كلها . وتحقيق هذا المزاج ، هو الأساس الأول للاشتراكية الاسلامية . وهذا الأساس يقوم على مبادىء تكفل رفع الظلم الذى يشكو الناس منه ، والذى أدى منذ أقدم العصور الى التفكير فى الاشتراكية ومحاولة تنظيمها لتكون صالحة للحياة العملية فى الجماعات

ولم ينكر غير الشيوعين مثل هذا المزاج .. فكثير من المبادىء الاشتراكية لا تنكر الملكية الفردية انكارا مطلقا ، ولا تنكر الأسرة ولا التوارث . وبعض هذه المذاهب يقر الملكية الصغيرة فى الزراعة والصناعة والتجارة ، وان أنكر الملكية الكبيرة فيها جميعا . ومنها من يدعو الى الاشتراك المطلق فى مواد الانتاج ، ويقر الفردية فى التمتع بثمرات هذا الانتاج . ومنها كذلك ما يجعل العمل أساس توزيع الثمرات .. يتخذ العمل بديلا من رأس المال الذى يقوم النظام الفردى على أساسه

هذا التعدد فى صور الاشتراكية ، هو الدليل على أن الانسانية تحاول منذ القدم أن تهتدى الى نظام يزيل الاجحاف الناشىء عما بين الناس من تفاوت فى حظوظهم المادية . ولم تذهب هذه المحاولات عبثا .. فلم يستقر النظام الفردى بصورة مطلقة فى الحياة الاجتماعية الا فى فترات وجيزة . وأنت ترى اليوم صورا من الاشتراكية تجاور النظم الفردية فى الحياة الاقتصادية للأمم كلها . وما تقرر من حقوق مشتركة للجميع .. كالتعليم ، والصحة ، والتعاون ، وما اليها ، ليست الا بعض هذه الصور تقررها الجماعات للخير العام من ناحية ، واقرارا لمبادىء العدل بين الأفراد من

الناحية الأخرى

وهذا التجاور بين النظم الفردية والنظم الاشتراكية فى الجمعية الواحدة أمر طبيعى ، بل هو وحده الطبيعى .. فالجماعة الانسانية — على أى أساس أقمتها — لا يمكن أن تنهض الى الكمال الواجب عليها ، الا اذا كفلت للفرد حريته فى النشاط الذاتى ، وحقه فى المتاع العادل بثمرات هذا النشاط .. ثم حالت فى نفس الوقت بينه وبين الضغط على نشاط غيره ، وبينه وبين ما لغيره من حق فى ثمرات نشاطه والمتاع بها .. بذلك يكفل تضامن الجهود فى توجيهها لخير الجميع

والمبادىء الاسلامية فى التنظيم الاجتماعى تحقق هذا كله .. فهى تقر الملك والأسرة والميراث كما قدمنا ، وتعتبرها نظما أساسية فى الحياة الاجتماعية .. لكنها تقدر ما فى قيام الملكية الكبيرة واستمرارها من خطر الطغيان من جانب الأغنياء ، والشعور بالظلم الناشىء عن تفاوت الحظوظ المادية من جانب الفقراء . لذلك عملت للحيلولة دون قيام الملكية الكبيرة على أساس غير المجهود الذاتى .. ولبلوغ هذه الغاية حرم القرآن الكريم الربا ، وجعل نظام الميراث وسيلة فعالة لتجزئة الملكية الكبيرة . وفى تجزئتها ، وفى تسهيل انتقال أجزائها من فرد الى فرد ، ومن أسرة الى أسرة ، ما يزيل الخوف من ألم النفوس لتفاوت الأرزاق تفاوتا ظالما

لم يكتف الاسلام بهذه القيود التى فرضها على الملكية وثمراتها وطريقة توزيعها .. بل جعل على أصحابها حقوقا لبيت مال المسلمين يؤدونها زكاة عن أموالهم وصدقة تطهرهم ، وجعل للفقراء الذين حرموا السعة فى الرزق ، للمحتاجين الذين ثقلت عليهم الحياة حقوقا فى بيت مال المسلمين مقررة بقوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » والحديث المأثور عن النبى عليه السلام أنه قال : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم » يتفق تمام الاتفاق وأحكام الآية السابقة من القرآن

على أن الاسلام لايريد أن يكون هذا الاشتراك فى مال الأغنياء ــ مما جعله حقــا للفقراء ــ أمرا تشريعيا ينزل المشرع حكمه طائعا أو كارها ، بل أراده أمرا تعبديا يجب أن يتصــل بالايمان اتصال الصــلاة والصوم وسائر الفروض . وذلك قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبــه ذوى القربى واليتــامى والمساكين وابن السبيل والســائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

الاشــتراكية الاســلامية يجب أن تقوم بالنفس على أنها من فرائض الايمان .. وهذا الايمان نفسه له فى قيام الاشتراكية أثر بالغ

أسس الاشتراكية الاسلامية

الاشتراكية الاسلامية تناقض الشيوعية وتحاربها .. فهي — على خلاف الشيوعية — تعتبر الملك ، والأسرة ، والميراث ، نظما أساسية في الحياة الاجتماعية . لكنها ترى الغنى الفاحش مصدر طغيان يخشى خطره .. لذلك عملت للحيلولة دون قيام الملكية الكبيرة على أساس غير المجهود الذاتى ، فحرم القرآن الكريم الربا ، وجعل الميراث وسيلة فعالة لتجزئة الملك ، ثم فرض للفقراء حقوقا على الأغنياء .. وجعل هذا كله من فرائض الايمان ، فكفل بذلك للاشتراكية الاسلامية القوة والبقاء

وأبادر ، بادىء ذى بدء ، بتفسير ما أقوله من أن الاسلام جعل هذه الأمور من فرائض الايمان .. فان كثيرين يسألون : لم فرض الاسلام على الناس أمورا تدخل فى نظام حياتهم فى هذا العالم ، ولم يكتف بالعبادات وما بين المرء وخالقه مما يتصل بالعقيدة ، ليترك ما بين الناس بعضهم وبعض ، ينظمونه على مقتضى مصالحهم فى العصور المختلفة ، والأمم المختلفة ؟

وأكرر ما سبق أن قلته غير مرة : أن القرآن الكريم لم يتناول تفصيل المسائل بل مبادئها العامة ، ثم ترك التفاصيل ينظمها الناس بما يحقق مصالحهم .. واجتهاد المسلمين فى العصور المختلفة ، واحترامهم جميعا للمذاهب المختلفة التى أقامها هذا الاجتهاد ، أقوى حجة على هذا . وما جاء به القرآن الكريم من المبادىء العامة لنظام الحياة الدنيا جوهرى فى الاسلام لسلامة العقيدة .. ولذلك كانت العقيدة السليمة والايمان الصادق ، قوام هذا الدين .. وكانت مصدر النظام الروحى الذى يجب أن يقوم الخلق الحسن على أساسه . وكل خروج فى نظم الحياة الاجتماعية على قواعد الخلق ، وعلى النظام الروحى الذى تقوم عليه ، جدير بأن يترك

أثره السيء فى الأخلاق وفى العقائد العامة ، وفى الايمان والعبادات المترتبة عليه

يجب علىّ ، لأزيد هذه الفكرة وضوحا ، أن أذكر اتجاه الاسلام الواضح فى تقرير سلطان الروح فى سموها الى المثل الأعلى على الغرائز الانسانية الجمعية فى حدود الحياة ، وحاجاتها العاجلة . والناس جميعا — على اختلاف أديانهم ومذاهبهم — يؤمنون بهذا السلطان ، وان كانوا لا يرتبون عليه كما يرتب الاسلام كل نتائجه . وهل غرضنا جميعا من تربية أبنائنا وتهذيب نفوسنا الا أن نهذب هذه الغرائز ، وأن نبلغ بتهذيبها أسمى المبادىء الانسانية ؟.. وأكثر الأمم رقيا ، وأكثرها نجاحا فى تربية أبنائها ، هى التى تصل بهم الى الايمان بمبادىء الغيرية والايثار على أنها واجب عليهم لأنفسهم ، ولأبناء جنسهم . وهم لذلك يقررون ما توجبه هذه المبادىء بوحى ضمائرهم .. وان لم يفرضها عليهم قانون أو يلزمهم بها سلطان

والتربية والتهذيب ، غرضهما الأساسى تقوية سلطان العقل والروح على الغرائز الأولية التى يحركها الحرص على الاحتفاظ بالحياة .. وكلما زاد سلطان العقل والروح على الغرائز السليقية ، ازددنا ايمانا بفكرة الواجب واذعانا لندائه المنبعث من ضمائرنا .. فاذا بلغ اقتناعنا بهذه الفكرة مبلغ الايمان ، وأيقنا بأن هذا الواجب يفرضه علينا بارىء الوجود ، وزاد بنا اليقين فعلمنا أن هذه الحياة ليست كل شىء ، وأن النتائج العاجلة التى تجنيها من اطاعة غرائزنا الأولية كثيرا ما تضرنا فى حاضرنا وفى مستقبلنا ، كنا أشد بالواجب ايمانا ، ثم رتبنا على مقتضى هذا الواجب معاملتنا للناس وصلتنا بهم

وضرورة الايمان بالواجب ، وتقديمه على حاجات الحياة المادية ، مقررة فى النفوس جميعا منذ بدأ الانسان يفكر .. والجندى الذى يبذل حياته فداء لوطنه ، مثل حى لهذا الايمان فى كل العصور . وحينما فكر بعضهم فى اقامة نظم دينية بأوربا تساير حضارتها فى القرون الأخيرة ، كان دين

الواجب بعض ما فكر فيه « أوجست كنت » .. ذلك لأن الغرائز الفردية الحبيسة فى حدود الحياة وحاجاتها العاجلة ، تقتصر عن أن تسمو بالانسان الى حيث أعده القدر . ولذا وجب أن يكون سلطان العقل والروح على هـذه الغرائز الفردية قويا الى الحد الذى يكفل حياة الجماعة الانسانية وطمأنينتها وسعادتها .. وقواعد الخلق هى الكفيلة بتحقيق هذه الأغراض والايمان بأن هذه القواعد جوهرية لبلوغ الكمال فى أداء الواجب ، هو القوة الروحية السامية التى تطمئن اليها قواعد الخلق ، وتدعو الناس الى القيام بالواجب حرصا على رضا الضمير ، ورضا الله

على هـذا الأساس ، كانت الزكاة ركنا من أركان الاسلام ، وكانت الصدقة فريضة من فرائضه . والزكاة لها قواعدها .. والوالى ينظمها حسب مقتضيات الوقت كما تنظم الحكومات الضرائب ، ويقتضيها الناس بقوة الشرع وسلطانه . فاذا نكل الناس عن أدائها أكرهوا عليه . وامتناع العرب عن أداء الزكاة ، هو الذى أدى الى حروب الردة فى عهد أبى بكر . أما الصدقة ففريضة تعبدية أوجبها الاسلام على كل قادر عليها لخير من هو فى حاجة اليها . وجعل جزاءها عند الله كجزاء الايمان بالله . وذلك قوله تعالى : « خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . انه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين » وقوله جل شأنه : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وكون الصدقة فريضـة ، صريح فى قوله تعالى : « انما الصـدقات للفقراء والمسـاكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم » وفى قوله جل شأنه : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »

والأحاديث الواردة فى الصـدقة ، متفقـة مع ما جاء فى كتاب الله ، مستفيضة قوية غاية القوة فى الحض عليها

أما نزعة الاسلام الى تحديد الثروة ورغبتـه عن الثروات الضخمة ، فواضح فى القرآن الكريم كل الوضـوح . من ذلك قوله تعالى : « ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى » ومنه قوله : « يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال النـاس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »

هـذه كلها ميول اشتراكية واضحة .. على أن أشد ميول الاشتراكية الاسـلامية اتفاقا مع ما تنادى به بعض المذاهب الاشتراكية المعتـدلة فى عصرنا الحديث ، فذلك جعله العمل الأساس الأول لتوزيع الثروة واعتباره رأس المال وسيلة للعمل .. وليس عنصرا قائما بذاته تترتب لصاحبه ثمرات كالتى تترتب للعامل ، أو لمالك الأرض وغير الأرض من أدوات الانتاج

وهذا الاعتبار هو فى رأيى السبب الجوهرى لتحريم الربا .. فاقراض المال وفرض فائدة معينة له ، بقطع النظر عن الثمرة التى يجنيها من يثمر هذا المال ، وعما قد ينشأ عن هـذا التثمير من الخسارة ، معناه اشتراك رجل لا يعمل فى ثمرات العمل الذى يقوم به غيره . فاذا اعتبرنا رأس المال ثمرة عمل سابق اشترك به صاحبه مع من يثمر المال المقترض كانت النتيجة العادلة أن يكون المقرض والمقترض شريكين لكل من الربح ، وعليه من الخسارة حظ معلوم . اما أن يكون لأحد الطرفين ربح ثابت سيان ربح الآخر أو خسر ، وأن يسمى هـذا الربح فائدة المال ، فذلك ما لا يقره الاسلام بحال

ليس معنى هذا بالطبيعة أن الاسلام لا يقر قيام الشركات .. فكل شركة تتألف للقيام بعمـل من الأعمال ، ويكون للشركاء فيها حظ من الربح وعليهم حظ من الخسارة ، بمقدار نجاح الشركة أو مصادفتها العقبات ،

يتفق وما قدمنـــا تمام الاتفاق . ولقـــد ظل التجار يقومون من مكة بعد الاسلام ، كما كانوا يقومون قبله ، فيجمعون الأموال من أهلها ويتجرون فيها ثم يقسمون الأرباح بين الشركاء . وقد تطورت نظم الشركات بتطور الأحوال التى مرت بها الدول الاسلامية ، فنظم الفقهاء أحكامها بما هداهم اليه اجتهادهم

العمل أساس الجزاء

وكما قصـــد من تحريم الربا الى أن يكون عمـــل العامل هو الركن الأساسى لتوزيع الثروة ، قصد من قواعد التوريث الاسلامى الى الحيلولة دون قيام الملكية الكبيرة واستمرارها أجيالا فى يد واحدة . وقد لاحظ الذين تتبعوا انتقال الثروة فى الأمم الاسلامية خلال العصور ، سرعة تنقلها وعدم استقرارها فى يد واحدة استقرارا يغرى بالطغيان . وكانت هـــذه الملاحظـــة ، موضـــع تفكير من جانب الذين يظنون أن تقدم الأمم رهن باستقرار الأسر العريقة وتقاليدها الصالحة . لكن هـــذا التفكير لا يتفق وميول الاسلام الاجتماعية ، ولا يتفق مع ما ينطوى عليه هذا الدين من حرص على قيام المزاج الضرورى من الفردية والاشتراكية لخير المجموع ، ثم هو لا يتفق أخيرا مع الأساس الجوهرى الذى وضعه الاسلام أساسا لهذه الحياة الدنيا وللحياة الآخرة ، والذى تلخصه الآية الكريمة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

وهذا الأساس الجوهرى ، هو ما جعلنى أقرر من غير تردد أن الاسلام يشترك مع المبادىء الاشتراكية المعقولة فى هذا العصر الحديث ، اذ يقرر أن العمل أساس الجزاء .. ويجب لهذه الغاية أن يكون أســـاس توزيع الثروة . ولا أرانى بحاجة الى ذكر نصوص القرآن الكريم التى تقرر هذا المبدأ فى وضـــوح وصراحة فالآيات التى فى معنى قوله تعالى : « وهل تجزون الا ما كنتم تعملون » متواترة فى القرآن الكريم تواتر الآيات التى تحض على الزكاة ، وعلى الصدقة ، وعلى الايمان بالله

الاشتراكية الاسلامية لا تنكر اذا ذاتية الفرد ، ولذلك لا تنكر الملك ولا الأسرة ولا التوارث . وهي مع ذلك تنكر التفاوت الذى يخلق الطبقات ، ويقيم بينها النضال ، وما ينشأ عن النضال من عداوة وبغضاء .. ومن ثم ، جعلت العمل أساس الجزاء وتوزيع الثروة ، وحرمت كل وسيلة للغنى تجيز الاستيلاء على مجهود الغير

تطبيق الأشتراكية

فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم

النظام الاقتصادى فى الاسلام مزاج من الفردية والاشتراكية .. فهو يقرر الملك والأسرة والميراث ، وهو يقيم طائفة من القيود والحدود تخفف من التفاوت بين الناس فى حظهم المادى ، وهو يجعل قواعد الخلق القائمة على أركان الايمان الاسلامى أساس هذا النظام ، ليكفل له القوة والبقاء

كيف طبقت الاشتراكية الاسلامية القائمة على هذا الأساس فى الصدر الأول للاسلام ؟

أما فى عهد رسول الله ، فقد بلغ تطبيقها غاية السمو .. وكان الرسول الكريم الأسوة الحسنة فيها ، ثم كان أصحابه مثال الايثار على أنفسهم . وأنت اذ ترجع الى ما قبل الهجرة الى المدينة ، ترى من أمثلة ذلك الشىء الكثير .. فكثيرا ما افتدى أبو بكر الأرقاء ، الذين أسلموا فعذبهم سادتهم ، ثم أعتقهم بعد افتدائهم . وكذلك فعل غير أبى بكر .. بل لقد كاد المسلمون يعتبرون أموالهم جميعا ملكا مشتركا بينهم جميعا . ولذلك أفنى أكثرهم ماله ، فلم يبق له الا القليل حين الهجرة الى المدينة

كانت أموال خديجة أم المؤمنين طائلة ، وكان رسول الله يتصرف فيها كما يشاء . ولقد أنفقها جميعا على المسلمين ، فلم يكن له منها حين الهجرة شىء . وكان أبو بكر قد جمع من التجارة أربعين ألف درهم قبل اسلامه.. ومع انه ظل يتجر بعد أن أسلم ، فيجنى من التجارة وافر الربح ، فقد كان كل ماله يوم هاجر الى المدينة خمسة آلاف درهم . وأنفق عثمان بن عفان لخير المسلمين صدقات يخطئها العد

ولما قاطعت قريش رسول الله وأصحابه ، وأكرهتهم على أن يقيموا بشعاب الجبل ثلاث سنوات متعاقبة لا يتصلون بسائر أهل مكة فى تجارة ، كان الفقراء يأكلون من مال ذوى اليسار .. لايحاسبهم أحد ، وذوو

اليســار هؤلاء مطمئنون الى أن الله سيجزيهم عن بذلهم لاخوانهم أوفى الجزاء

فلما هاجر المسلمون الى المدينة ، وبدأ رسول الله يعلن الى أهلها تعاليم الاسلام ، كان الأخاء الاسلامى حجر الأساس فى دعوته الى الدين الجديد والحضارة الجديدة . وكان هــذا هو الدليل على أن تعاليم مكة لم يدع اليها اضطهاد المشركين للذين أســلموا ، ولذلك لم يكن الاضطهاد سبب ما رأيت من أخاء وبذل واشتراكية . فلقد ظلت تعاليم محمد بمكة قائمة على الأساس الذى نادى به منذ اليوم الأول ، أســاس الأخاء الصادق ، فلا يكمل ايمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. وحتى يصل به هــذا الأخاء الى غاية البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة ..

سأل رجل من أهل المدينــة محمدا : « أى الاسلام خير ؟ » فأجابه : وتطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وكان رسول الله يرى الفقر فخره ، ويرى فى ادخار المال ما لا يتفق ومقامه من الرسالة. كان عنده أول ما اشتد به المرض الذى أعقبته وفاته سبعة دنانير ، خاف أن يقبضه الله اليه وما تزال باقية عنده ، فأمر أهله أن يتصدقوا بها . لكن اشتغالهم بمرضه أنساهم تنفيذ أمره .. وسأل عنها قبيل وفاته ، فلما ذكرت عائشة أنها ما تزال عندهم ، طلب اليها أن تحضرها ووضعها فى كفه ، وقال : « ما ظن محمــد بربه لو لقى الله وعنده هــذه » ثم تصدق بها على فقراء المسلمين

ولمــا تمت هجرة المسلمين من أهل مكة الى المدينة ، فانصرف تفكير الرسول الى تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم ، كان أول ما صنعه أن دعا المهاجرين والأنصار جميعا ليتآخوا فى الله أخوين أخوين .. ثم جعل لهذا الاخاء حكم اخاء الدم والنسب . ولقد أبدى الأنصار فى هذا الموقف من حسن الايمان ، ما جعلهم يعرضــون على المهاجرين أن يشــاركوهم أموالهم .. لكن المهاجرين أبوا أن يعيشوا كلاًّ على اخوانهم ، ثم كانوا يجدون فى الجهد للعيش من الطمأنينة لأنفسهم ولعقيدتهم ، ما لم يكونوا

يجدونه بمكة

فأما الذين لم يجدوا عملا ، أو لم يكونوا يستطيعونه ، فأولئك أفرد لهم الرسول مكانا مسقوفا بالمسجد هو صفته يبيتون به ويأوون اليه ، ولذلك سموا أهل الصفة ، وجعل لهم رزقا من مال المسلمين الذين آتاهم الله رزقا حسنا . وهذا بعض الاشتراكية الاسلامية .. وهو يتفق مع ما يقع اليوم حين حدوث بطالة بين العمال فى الأمم المتمدينة

وقبل أن أنتقل الى تطبيق الاشتراكية الاسلامية فى عهد أبى بكر ، أذكر ما حدث حين قسمة النبى فى « حنين » فقد كان الخمس من الفىء والغنائم يرد الى رسول الله بحكم القرآن . على أن رسول الله رأى فى أعقاب حنين أن يتألف خصومه من أهل الطائف وغيرهم بأن يرد اليهم ما غنمه المسلمون منهم ..

وأخذ هؤلاء المؤلفة قلوبهم من الفىء شيئا غير قليل ، فخشى المسلمون أن تنقص قسمتهم من الفىء ان أفشى محمد هذه الأعطيات .. لذلك ألحوا فى أن يأخذ كل فيئة وتهامسوا بذلك . فلما بلغ التهامس النبى ، وقف الى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه ، فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها وقال : « أيها الناس : والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة الا الخمس ، والخمس مردود عليكم » وهذه العبارة الأخيرة : « الخمس مردود عليكم » تنطوى على معنى من معانى الاشتراكية لا يفوت أحدا

تطبيق الاشتراكية فى عهد أبى بكر

ولما اختار الله رسوله ، وخلفه أبو بكر على المسلمين ، سار سيرته فى المساواة بين الناس وفى تنفيذ فكرة الاشتراكية الاسلامية تنفيذا دقيقا .. كانت الزكاة تجمع الى بيت مال المسلمين ، فينفق منها ومن الصدقات والمغانم على شئون الدولة فيما يصلح الجيوش وغيرها .. فاذا بقى بعد ذلك شىء ، قسم بين المسلمين بالسوية .. لا يميز منهم حر على عبد ، ولا يميز عربى على أعجمى

وقد اكتشف منجم للذهب على مقربة للمدينة فى أراضى بنى سليم ،

فسار أبو بكر فى تقسيم الذهب المستخرج منه مسيرته فى تقسيم ما بقى من الزكاة وأخماس الفىء والغنائم .. فكان يسوى فى قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الاسلام وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . وقيل له : « ألا تقدم أهل السبق على قدر منازلهم » فكان جوابه : « انما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، يوفيهم ذلك فى الآخرة ، وانما هذه الدنيا بلاغ »

هـذه النزعة الجديدة الى الاشتراكية ، لم تكن مألوفة عند العرب .. ولذلك كانوا يعترضون على أبى بكر فى مساواته هـذه فى التوزيع بين المسلمين . وكان أبو بكر يحتج بسنة رسول الله ، ويجعل الأخاء والمساواة أساسين جوهريين لنظام هذه الحياة الدنيا كما انهما ركنان من أركان الايمان بالله ، ومن الأسس التى تقوم عليها عبادته جل شأنه ..

الاشتراكية فى عهد عمر

ومثل هذه المبادىء الناشئة فى جمعية من الجمعيات الانسانية تتأثر فى أحيان كثيرة بميول الجمعية . ولهذا عدل عمر بن الخطاب عن سنة أبى بكر فى توزيع الصـدقات ، وفى توزيع الخمس الذى لبيت المـال فى الغنائم والفىء .. فقارب العرب فى ميولهم لأنه كان متفقا معهم فيها . من ذلك انه فضل السابقين الى الاسلام فى توزيع ما للمسلمين من حق فى بيت المـال على غيرهم ، كما فضل نساء النبى أمهات المؤمنين ، ثم فضل أهل بيت النبى وذوى قرابته

ولم يبدأ عمر بهذا التفضيل لأول ما تولى امارة المسلمين ، فقد اتبع رأى أبى بكر فى التسوية بين الناس حتى تم له فتح العراق .. عند ذلك شاور الناس فى التفضيل ورأى انه الرأى . وكان يقول : « لا أجعل من قاتل رسـول الله كمن قاتل معه » لذلك فرض لكل من السابقين الذين شهدوا بدرا من المهاجرين والأنصار خمسة آلاف ، وفرض لمن لم يشـهد بدرا من هؤلاء أربعة آلاف . وفرض لكل واحدة من نساء النبى اثنى عشر ألفا ، وفرض للعبـاس عم رسـول الله اثنى عشر ألفا ، وفرض لكل من

الحسن والحسين خمسة آلاف ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ، وفرض لمن دون هؤلاء فروضا تختلف وتنزل الى ستمائة درهم وأربعمائة درهم ومائتى درهم

على أن عمر قد أقام على رأى أبى بكر فى أمر الأرض ، فلم ير قسمتها بين المسلمين على أنها غنيمة غنموها ، ولقد كتب الى سعد بن أبى وقاص حين فتح العراق يقول ، بعد أن أمره أن يقسم المال بين من حضر من المسلمين : « واترك الأراضى والأنهار لعمالها ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء » وانما قصد بذلك أن تبقى الأرض وما عليها من الرجال للدولة .. يأخذ الرجال مقابل عملهم ، وتأخذ الدولة سائر غلتها لتضمه الى بيت المال ، فتتصرف فيه تصرفها فى بيت المال

تطورات جديدة

ظل التطور بعد عهد عمر والخلفاء الراشدين يطرد متأثرا بالفتوح وبالنظم القائمة فى البلاد التى فتحها الله للمسلمين .. وكان اطراد هذا التطور يقتضى تغير الأوضاع الفقهية للملك والخراج والزكاة والصدقة . فأنت ترى فى بعض الأحيان ما يساير الأفكار التى يقول بها أصحاب مذهب اشتراكية الدولة من أنصار اشتراكية العهد الحديث ، وترى فى أحيان أخرى نظما تكاد تتفق وما كان فى عهود الاسلام الأولى .. على أن المسلمين فى كل العهود ، قد اعتبروا طائفة من الحقوق التى تقررها المذاهب الاشتراكية فوق الجدل .. فكما كانوا يبنون المساجد للعبادة ويرونها حقا مشتركا للجميع لا ينازع فيه منازع ، كانوا يبنون المدارس للجميع يتعلمون فيها بلا مقابل .. ويرون التعليم حقا مشتركا للجميع لا ينازع فيه منازع ، وكانوا يقيمون موارد الماء يشرب منها كل ظامىء .. وكانوا يعتبرون هذا كله وما اليه حقا مسلما به لذوى الحق فى الصدقة ممن ورد النص عليهم فى آيات القرآن الكريم ، كما كانت الصدقة فريضة تعبدية يؤديها ذوو اليسار شكرا لله على ما رزقهم هذا اليسار ، والتماسا منه جل شأنه أن يحفظه عليهم وأن يزيدهم منه

واعتبار الصدقة فريضــة تعبدية ، وجعل ما فى بيت مال المسلمين منها حقا مقررا لمن فرضه الاسلام لهم ، هو الذى يؤكد معنى الاشتراكية على ما فهمها فى العصر الأول ، وعلى ما طبقوها فى عهود الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم ..

الامم الاسلامية فى العصر الحديث

مرت الأمم الاسلامية فى العصور المختلفة ، بأطوار متفاوتة فى قربها من النظام العربى الذى نشأ مع الاسلام ، واستمد أصوله من البيئة العربية .. وفى بعدها عن هـذا النظام وقربها من النظم التى كانت تحيط بالعاصمة الاسـلامية حين كان للمسلمين عاصمة معترف بها منهم جميعا ، وبأقوى العواصم الاسلامية حين تعددت هـذه العواصم وتنافست .. واستقلت بعضها بالخلافة على المسلمين وخرجت بعضها عن سلطان الخليفة وحكمه

كان ذلك شأن هذه الأمم فى نظامها السياسى ، وفى نظامها الاجتماعى ، وفى نظامها الاقتصادى .. ولئن ظلت كلها خاضعة لأحكام القرآن الكريم فى ايمانها وعباداتها . لقد كان لاجتهاد الفقهاء وكبار العلماء أثره البالغ فى التطور من نواحيه المتصلة بنظم الحياة الاجتماعية . ولن يزال ذلك شأنها اليوم وفى المستقبل كما كان شأنها فى الماضى .. فما جاء بالقرآن من نظم هذه الحياة الاجتماعية ، لم يتعد المبادىء العامة كما قدمنا وتفصيل هـذه المبادىء وتوجيهها كان ولا يزال مصدر تطورها واتصالها بسائر أمم العالم وبالحضارة القائمة فيه

ولقـد عم الحكم المطلق الأمم الاسلامية ، حين ساد هـذا النظام أمم العالم كله .. أما اليوم فالأمم الاسلامية تؤمن كلها بالمبادىء الديمقراطية ، وتراها وحدها المتفقة مع مبادىء الاسلام الأساسية ، ومع ما قررته هـذه المبادىء من قواعد الأخاء والحرية والمساواة

على أن تغير النظم التى أظلت العالم الاسلامى فى مختلف العصور لم يغير المبدأ العام للحياة الاقتصادية ، ولا الأساس الذى تقوم هذه الحياة عليه .. فقد ظلت هذه الحياة دائما مزاجا من الفردية والاشتراكية

لذلك ظل الملك والأسرة والميراث أسسا جوهرية لحياة هـذه الأمم ، وظلت لليتامى والفقراء والمساكين وأبناء السبيل وغيرهم ممن نص الكتاب

الكريم عليهم حقوق مقررة فى بيت المال تقتضى من الزكاة ومن الصدقة .. كما ظل فى مال كل مؤمن حق معلوم للسائل والمحروم

الاشتراكية فى العبادات

وما كان لهذه القواعد أن تتغير أو تتبدل وهى متصلة بالايمان بالله كما قدمنا ، وما كان للاشتراكية الاسلامية أن تزول أو تضعف ولها فى سائر مظاهر الايمان والعبادات المترتبة عليه نصيب واضح . ولقد أشرنا الى الزكاة والصدقة واتصال هذه الاشتراكية واضح فى صلاة الجماعة ، وفى الصوم ، كما أن فريضة الحج تنطوى على معانى الاشتراكية الاسلامية .. حتى لا يبالغ من يقول انها أوضح مظهر لهذه المعانى جميعا

فالتفاوت بين النـــاس يسقط أثناء هــذه الفريضة ، فلا يبقى له أثر فى لباسهم .. ولا فى زينتهم ، ولا فى أى من مظاهر حياتهم . هم أثناء طوافهم بالكعبة وسعيهم بين الصفا والمروة وقيــامهم على عرفات واقامتهم بمنى ، صورة قوية الدلالة على زوال التفاوت ، وعلى ســعادة الانسانية بهذا الزوال . ودلالة هذه الصورة أقوى وأكثر صراحة فى أن التفاوت النفسانى أعظم من التفاوت المادى

هذا كله جعل الاشتراكية الاسلامية تبقى قوية عميقة القواعد فى نفس كل مســلم . ولقد كانت واضــحة الأثر ، منــذ نصف قرن ، فى الأمم الاسلامية . وتطورت صورها فى هذا القرن العشرين حتى كادت تخفى عن الاعين . وسبب هذا التطور شدة اتصال الأمم الاسلامية بالغرب وأخذها بمبادئه وبحضارته . والاشتراكية الاسلامية مع ذلك باقية ، وأنا واثق بأن التطور فى حياة الأمم الاســلامية سيعيدها على أساس من القواعد التى عرفها أهل الصدر الأول وأهل العصور الأولى للاسلام

ولقد يعجب بعضهم لقولى أن الاشتراكية الاسلامية كانت واضحة الأثر الى خمسين سنة مضت .. لكن الواقع هو ما أقول . والذين عاشوا خلال الحقبه الأخيره من القرن الماضى وهم لحسن الحظ كثيرون ، يذكرون أن

السجايا الاسلامية التى كانت متداولة بين المسلمين الأولين من أهل شبه جزيرة العرب كانت متداولة فى مصر .. فكان الذين آتاهم الله رزقا حسنا يشعرون بما عليهم للفقير واليتيم والمسكين وابن السبيل من حق واجب الأداء لرضا الله .. وكان مظهر ذلك باديا فى نواحى الحياة بوجه عام

ولقد كان أكثر وضوحا فى شهر الصوم من كل سنة ، حتى لقد كان أهل القرى لا يتناول أحدهم طعامه داخل داره ، بل أمام الدار .. ويرى حقا لكل من يمر به ـ عرفه أو لم يعرفه ـ أن يجلس معه وأن ينال من هذا الطعام كفايته . هذا الى أن من آتاهم الله رزقا حسنا ، هم الذين كانوا يتكفلون بالمرافق العامة للقرية .. فكان الأذكياء من أبناء الفقراء يتعلمون على نفقتهم ، وكان المرضى موضع عنايتهم ورعايتهم ، وكان فى مالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وكانوا يرون أداء هذا الحق واجبا يحاسبهم الله ويجزيهم عليه

ولقد قلنا من قبل أن الاسلام حرم الربا على أساس اشتراكى مقبول ، ذلك ألا يستغل من لا يعمل ثمرات العمل الذى يقوم به غيره . وكلنا لا نزال نذكر أن الربا كان الى عهد قريب بغيضا الى النفس الاسلامية أشد البغض ، وان المسلمين جميعا كانوا لا يفتأون يذكرون قوله تعالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » وقوله جل شأنه : « الذين يأكلون الربا انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »

وكان العمل بهذه المبادىء متبعا فى الأمم الاسلامية فى هذا الزمن القريب الذى أشير اليه .. وكان القرض الحسن وانظار ذى العسرة الى ميسرة ، بعض ما يراه صاحب المال واجبا عليه لمن كان فى حاجة الى هذا المال

تطورت هذه الأخلاق فى مصر ، وتطورت فى غير مصر من الأمم الاسلامية . وكان من أثر هذا التطور أن كانت هذه الاشتراكية تختفى عن الأعين ، فلم يبق لها مظهر الا فى الجمعيات الخيرية التى تألفت لتسد الأغراض التى جنى عليها هذا التطور .. على أن ما نراه فى مصر وفى غير مصر ، يدل على أن هذه الأمم الاسلامية تلتمس فى نظمها الجديدة وسيلة

يتحقق بها هــذا المزاج بين الفردية والاشتراكية على النحو الذى قرره الاسلام منذ عهوده الأولى

وآية هــذا الاتجاه ، ما هو واضح من حرص المســئولين فى الشئون العامة ، على العناية بشئون الطبقات الفقيرة عناية تقوم الدولة بأعبائها . ولم يعارض أحد هذه النزعة التى تحقق المزاج بين الفردية والاشتراكية . وهــذا الاجمــاع صريح فى الدلالة على أن الفكرة أصيــلة فى النفس الاسلامية ، متصلة فيها بالعقيدة وبالمبادىء الانسانية العامة التى تدعو هذه العقيدة اليها

هذا واقع بالفعل لا ينكره أحد ، وباجماع لا يخرج عليه أحد .. على أن ثمت أمر يتصــل به يستوقف النظر ، وهو فى رأيى جدير بالاعجاب والتقدير . ذلك ان الذين يدعون هــذه الدعوة ويتحمسون لها فى الأمم الاسلامية ينادون بها على أساس مدنى بحت ، ويعتبرونها تنظيما للحياة الاجتماعية والاقتصادية متصلا بشئون الحياة الدنيا ، ينطبق عليه الحديث النبوى : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وأنت تراهم لذلك لا يتقيدون فيه الا بما يحقق المصلحة العــامة على النحو الذى يهديهم اليه تفكيرهم .. مستمدين من شئون الحياة فى تطوراتها الحاضرة بحكم الحضارة القائمة ما يتفق والمبادىء الانسانية السامية القائمة على أساس من قواعد الخلق السليم المتصل فى نفوسهم بحكم ضمائرهم ..

وهذا الاتجاه المدنى متفق مع المنطق الاسلامى الذى يجعل العقل حكما فى كل شىء ، حكما فى الايمان نفسه . وذلك قول المغفور له الأستاذ الامام الشيخ محمــد عبده : « ان المرء لايكون مؤمنا الا اذا عقل دينه وعرفه بنفســه حتى اقتنع به .. فمن ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صــالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن . فليس القصــد من الايمان أن يذلل الانسان للخير كما يذلل الحيوان .. بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته »

وتفكير المفكرين من أهل الأمم الاسلامية فى التنظيم الاقتصادى على أساس مدنى تعينه المصلحة العــامة ، قد كان ســائدا بين المسلمين منذ العصور الأولى .. لا تقيده الا المبادىء العامة المقررة فى كتاب الله . ومن هذه المبادىء الأساسية ، قيام الملك الخاص والأسرة والميراث .. أما المرافق العامة العامة فيجب أن تكون ملكا عاما مشاع النفع بين النــاس جميعا . وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة ، وهو لذلك مدنى بحت

وقد وقع الخلاف على هذا التحديد منذ العصور الأولى للاسلام ، فكان من أصحاب النبى من يجعل الأرض وما تحتويه مرفقا عاما كالماء والهواء ، وانما يقع التملك على ثمراتها ينال منها كل على قدر سعيه ومجهوده . وهذا رأى آحاد كما يقول المحدثون .. أما الرأى الذى ساد دائما فيقول بتملك الأرض واعتبارها من العروض التى يقع عليها التبادل

ولو أننا التمسنا فى تفكير المسلمين الأولين قاعدة منطقية عامة ، يمكن الاهتداء بها الآن فى تقدير الاشتراكية الاسلامية واتجاهها لوجدنا هــذه القاعدة : يجب على كل انسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته ، ويجب على الجماعة أن تبذل لكل فرد منها ما يســد حاجاته مما تقصر عنه ثمرات عمله .. فلكل مسلم حق فى أن ينال من بيت مال المسلمين ما يكفل حاجاته وحاجات من يعول ما دام لا يجد عملا يرتزق منه ، أو ما دام العمل الذى يزاوله غير كاف لرزقه ورزق عياله

وهذه القاعدة العامة الثابتة فى نفوس المسلمين، هى التى تدعو مفكريهم اليوم الى تنظيم المزاج بين الفردية والاشتراكية تنظيما مدنيا متفقا مع تطورات الحياة فى هذا العصر ، بحكم الحضارة القائمة فى العالم . وهم لذلك يطلقون أنفسهم من كل قيد حين هذا التفكير ، وان لم يفكر أحدهم فى تخطى المبادىء العامة التى وضــعها القرآن الكريم ، والتى يؤمن كل مسلم بأنها أساسية للحياة متفقة مع الفطرة الانسانية وطبائع الجماعات

والتفكير على هذا النحو فى العصر الحاضر ، يعتبر تفكيرا حديثا فى العالم الاسلامى . وهو كما قدمت لايرجع الى أكثر من أوائل هذا القرن العشرين .. لذلك لا يمكن التكهن بمداه ولا بنتائجه .. فلندعه يسير فى طريقه مطمئنين الى انه لن يعدو فى يوم من الأيام هذا المزاج الصالح بين الفردية والاشتراكية ، وانه سيكون وسـيلة سريعة الأثر فى تقدم الأمم الاسلامية ورقيها

— ٢ —

الإسلام والديموقراطية

* المبادىء العامة
* التشريع والقضاء
* صور الحكم الديمقراطي
* الحياة الدولية

المبادىء العامة

يختلف نظام الحكم فى الأمم الديمقراطية .. ويرجع اختلافه الى تاريخ هذه الأمم حينا ، والى طباع أهلهـا أو نظامهم الاقتصادى حينا آخر .. فنظام الحكم فى انجلترا برلمانى وفى أمريكا نيابى . والتقاليد البرلمانية فى انجلترا تختلف عن مثلها فى فرنسا .. ومع ذلك تتفق هذه الأمم فى المبادىء الأساسية التى يقوم عليها نظام الحكم فيها ، والتى يؤمن أبناؤها بضرورتها لسعادة أممهم ورقيها ..

وفى مقدمة هذه المبادىء حكم الشعب نفسه عن طريق التمثيل الصحيح والمناقشة الحرة والتسليم برأى الأغلبية .. على أن هذه المظاهر التى تمثل مجتمعة نظـام الديمقراطية فى الحكم ، تقوم على أسـاس من مبـادىء سبقتها ، هى التى تعارف النـاس على تسميتها حقوق الانسان ، والتى جمعها الفرنسيون فى شعارهم : الحرية والأخاء والمساواة

اذا أردنا أن نعرف نظام الحكم فى الاسلام ، وجب علينا أن نرجع الى المبادىء الأساسية التى قررها ، وجعلها أساس الحياة الانسانية . ومتى عرفنا هذه المبـادىء ، واستقرت فى أذهاننا ، لم يبق لدينا ريب فى أن الاسلام والديمقراطية يلتقيـان فى الأمور الجوهرية جميعا ، وان نظام الحكم فى الاسلام يجب أن يكون فى صورة أو أخرى من صور الحكم فى الأمم الديمقراطية فى عصرنا الحاضر ، وان كل نظام لايقوم على أساس من حرية الفرد وتضامن الجماعة وحق الشعب فى حكم نفسه عن طريق المناقشة الحرة والانتهاء الى رأى الأغلبية .. كل نظام لا يقوم على أساس من هذه المبادىء التى تدعو الديمقراطية اليها ، لا يتفق والقواعد الأساسية التى قررها الاسلام ودعا اليها ، ولا يتفق وواجب المسلم فى التمسك بقواعد دينه والدفاع عنه

وقد ألف كثير من الذين يتعرضون لهذا الموضوع ، ويؤيدون الرأى

الذى نقول الآن به ، أن يستندوا الى بعض آيات القرآن الكريم كقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » وقوله : « وأمرهم شورى بينهم » ثم يكتفون بها فى التدليل على رأيهم . وهذا الدليل لاريب قائم وله قوته ، وبخاصة أنه نص من كتاب الله .. على أن جماعة من المسلمين فى عصور مختلفة ، قد لجأوا لأغراض خاصة الى تفسير هذه الآيات بما يلائم أغراضهم .. فلا بد لذلك من أن نرجع الى المبادىء العامة للاسلام ، لنرى كيف تتوج هذه الآيات تلك المبادىء ، ولنتبين أن نظام الحكم القائم على الشورى الاسلامية يجب أن يتحقق به للناس حظ من الحرية والأخاء والمساواة يعادل أو يزيد على ما تحققه لهم النظم الديمقراطية كما نفهمها فى عصرنا الحاضر

مبدأ الاخاء

ولنبدأ بمبدأ الأخاء .. لقد ذهب الاسلام فى تقرير هذا المبدأ الى أبعد مدى . فهو لم يضع له حدا من الحدود ، ولم يقم فى سبيله عقبة من العقبات . لم يجعل الجنس ولا اللغة ولا اللون سببا فى التباعد بين الناس ، ولم يفضل العربى على العجمى كما يفضل بعضهم الآرى على السامى ، ولم يفضل الأسمر أو الأبيض على الأسود ..

والقرآن الكريم صريح فى تقرير مبدأ الأخاء اذ يقول : « انما المؤمنون اخوة » ، واذ يقول : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم » والحديث عن النبى عليه السلام : « انه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » فالناس فى اسلامهم اخوة لا يتفاضلون الا بالأعمال الصالحة ، ولا يميز بعضهم عن بعض غيرها ، وان اختلفوا لونا ولغة وجنسا ومذهبا

والاخاء فى الاسلام ليس حديثا يجرى به اللسان ، أو مظهرا من مظاهر المجاملة وكفى .. بل هو مبدأ أساسى وعقيدة يجب أن تقوم بالنفس ، وأن تكون لها آثارها فى أعمال الانسان أو يكون ضعيف الايمان ..

ولا أحسب تصويرا لهذا المعنى بلغ فى قوته قول رسول الله : « لا يكمل ايمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وأول المحبة الاحترام ومظهرها الاسمى الايثار على النفس . فاذا لم أحترم أخى لأنه من جنس غير جنسى ، أو لأنه يتكلم لغة غير لغتى ، فأنا ضعيف ناقص الاسلام ..

واذا أنا لم أوثر أخى على نفسى فيما هو بحاجة اليه ، فأنا ضعيف الايمان ناقص الاسلام . واذا أنا قامت الكراهية بنفسى للناس فحقدت عليهم فأنا ضعيف الايمان ناقص الاسلام . فأما الذى يحب أخاه ويرجو له ما يرجوه لنفسه ، فذلك بين المسلمين رجل كمل ايمانه وتمت عليه نعمة الله

ولا أخال مذهبا من المذاهب ، بلغ فى تصوير الأخاء ما بلغه المسلمون . ولست أدلل على ذلك بأقوال المتأخرين الذين لعلهم تأثروا بالفلسفة اليونانية أو بغيرها من المذاهب التى نقلت الى العربية فى العصور الزاهرة للأمم الاسلامية ، وانما أدلل عليه بأعمال النبى العربى وبأعمال أبى بكر وعمر ..

فلم يرض النبى ، على اكبار المسلمين له وتقديسهم اياه ، أن يظهر فى مظهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية حين تم له السلطان فى شبه جزيرة العرب كلها ، بل كان يجلس من أصحابه حيث ينتهى به المجلس ، وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ..

وكان أبو بكر فى خلافته أخا لكل الناس صغيرهم وكبيرهم ، وكذلك كان عمر .. بل لقد كان النبى وصاحباه يرون الضعفاء أحق بأخائهم من الأقوياء ، فكانوا لا يضنون به على أحد ويرونه الأساس الأول للتضامن الاجتماعى

والحق انى لا أستطيع أن أفهم التضامن الانسانى الذى ننشده جميعا ، وندعو اليه بكل قوتنا ، حتى يتحقق هذا الأخاء بين الناس ، ويتحقق أخاء مثله بين الأمم .. وحتى يشعر كل فرد وتشعر كل أمة شعورا صادقا قويا ، بأن واجب الأخاء يقتضى أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه

أما المساواة فى الاسلام ، فهى المثل الأعلى فى تصور المساواة .. ليست هى المساواة أمام القانون وكفى ، بل هى تتناول ذلك وتسمو عليه .. هى المساواة أمام الله . وهذه المساواة لا يجنى عليها التفاوت فى الرزق ، ولا التفاوت فى العلم ، ولا التفاوت فى عرض من أعراض الدنيا ..

ولم أر فى حياتى مظهرا للمســاواة أعمق أثرا فى النفس من عشرات الألوف من المصلين مجتمعين حول الكعبة فى المسجد الحرام ، يتوجهون كلهم الى الله ، ويعلمون كلهم أن ما بينهم من تفاوت فى المال أو الجاه أو السلطان يتضاءل ويذوى ويصبح لا شىء فى هذا الموقف الرهيب الجليل الذى يشعر فيه كثيرون ممن تزدهيهم الحياة ، بأن غيرهم ممن هم دونهم مالا وجاها وسلطانا أقرب الى الله منهم بطهارة نفوسهم وصالح أعمالهم ..

اذا كان الايمان بفكرة المساواة أمام القانون بعض أركان الديمقراطية ، فما عسى يكون جلال الايمان بفكرة المساواة أمام القوة العليا مصــدر القانون ومصدر كل شىء ، قوة بارىء الكون ومدبره

الحرية أعز مبادىء الاسلام

أخرت الكلام عن الحرية فى الاسلام لأختتم بها هذا الحديث ، ولأن هذه الحرية أعز مبادىء الاسلام منذ نشأته

والحرية تعرف اليوم بما لك من حق فى أن تصنع ما تشاء ، ما دمت لا تؤذى غيرك ولا تعتدى على حريته . ولست أرى فرقا بين هذا التعريف وبين قول المسلمين : المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . والواقع أن الاسلام يقرر الحرية للنــــاس كاملة الا فيما يوجب الشرع عليه الجزاء ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الشرائع فى كل الأزمان ، وفى هذا الزمن الذى نعيش فيه

على أن أهم صورة للحرية المقصودة فى شعار الثورة الفرنسية ، انما هى حرية التفكير وحرية الرأى والتعبير عنه . وليس يبالغ من يقول أن

هذه الحرية مقررة فى الاسلام بأوسع صورها ومعانيها .. ولا أدل على ذلك من قيسام المذاهب الأربعة بين أهل السنة من المسلمين ، واحترامهم اياها جميعا .. على ما بينها من اختلاف فى التفكير والرأى . وهذه المذاهب قررها الأئمة الذين يعترف المسلمون جميعا بفضلهم ، وحسن ايمانهم ، وعلو مكانتهم ..

ولا تنس أن المذاهب الأربعة تتناول أحكام الشريعة على ما قررته قواعد أصول الدين . فاذا جاز الاختلاف فى هــذه الأحكام وصح الاجتهاد فى أمرها ، فما بالك بما سواها مما لا يتصل بها من الآراء والمذاهب .. ان حرية الرأى والتعبير عنه مطلقة فيه اطلاقا لا حد له الا العقل والعلم

واذا كان قيام المذاهب الأربعة دليلا على حرية الرأى ، حتى فى المسائل الشرعية .. فان ما تركه فلاسفة الاسلام من أمثال ابن رشد والغزالى وابن سينا والفارابى وغيرهم ، يسقط كل حجة يمكن أن يتذرع بها من يرى غير رأينا

أحسبنى بما تقدم قد أقمت الدليل على أن شعار الديمقراطية ، متحقق فى الاسلام على أتم وجه وأكمله ، كما أقمت الدليل على أن هذه المبادىء أساسية فى الاسلام مثلها فى الديمقراطية سواء . أما والنتيجة اللازمة لهذه المبادىء فى نظام الحكم أن يقوم فى صورة من صور الحكم الديمقراطى المختلفة ، فالشورى الاسلامية واحدة من هذه الصور لاريب ، والدفاع عنها دفاع عن مبدأ اسلامى سليم

على أن التقاء الاسلام والديمقراطية فى الأمور الجوهرية لا يقف عند هذه المبادىء العامة بل يتناول غيرها مما يتصل بها أو يترتب عليها

التشريع والقضاء

الحرية ، والإخاء ، والمساواة ، شعار الديمقراطية الحديثة .. وهي كذلك من المبادىء الأساسية في الاسلام . ذلك ما أقمنا عليه الدليل . وهذه المبادىء المترتبة على الحقوق الطبيعية للانسان في الديمقراطية وفي الاسلام جوهرية للجماعة بمقدار ما هي جوهرية للفرد . وهي بهذه المثابة أساس التضامن الاجتماعي ، وأساس النظام الذي يقوم عليه الحكم سواء في الديمقراطية أو في الاسلام

وقد أشرنا الى أن هذه المبادىء ، تقتضي حتما حكم الشعب نفسه ، عن طريق التمثيل الصحيح والمناقشة الحرة والتسليم برأي الأغلبية .. وأول مظهر لهذا الحكم انما يتجلى في التشريع وفي القضاء . فليس من حق فرد بالغة ما بلغت مكانته من السمو ، أن يشرع للمجموع على كره منه أو أن يلزم الشعب قوانين تأباها ارادته الحرة ..

وليس من حق فرد ، بالغة ما بلغت مكانته ، أن يجعل ارادته المطلقة فيصلا في القضاء بين الناس .. بل لابد للقضاء من قواعد يجرى عليها ، تتفق وارادة الشعب وتكفل حقوقه الطبيعية . ولا بد للقضاة من استقلال ، يجعلهم اذ يحكمون لايرعون في قضائهم الا القانون وقواعد العدل وما ترضاه ضمائرهم النزيهة الطاهرة . وهذه القواعد التي تقررها الديمقراطية الحديثة هي بعينها القواعد التي يقررها الاسلام

ولعلك اذا رجعت الى قواعد القضاء والتشريع في الأمم الاسلامية ، رأيتها أقرب ما تكون في صورتها لقواعد القضاء والتشريع في انجلترا في عهدها البرلماني الذي يمثل مبادىء الديمقراطية أصح تمثيل .. فقد ألف الناس في انجلترا الى عهد قريب جدا ألا يقوم العدل على قواعد من التشريع البرلماني ويلجأ الى تغييرها من حين الى حين حسب ما تقضي به الظروف

وانجلترا لم تألف هذا التقليد الفرنسي فى التشريع الا من عهد قريب .. وهى لم تألفه الا فى المسائل الاجتماعية المتصلة بالسلطة العامة أكثر من اتصالها بمعاملات الأفراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض . أما فيما خلا ذلك ، فمرجع التشريع الانجليزى الى أحكام القضاء التى تثبت قواعدها على الزمن فيرضاها الناس ويتخذونها شرعا لهم فى معاملاتهم ، ثم تصبح فى انجلترا كلها قانونا يطبق على الجميع ويسترشد به القضاة للفصل فيما يعرض عليهم من المنازعات

وأنت اذا أردت أن ترجع الى كتاب من كتب القانون فى انجلترا ، لأمر يتعلق بالمعاملات المدنية أو التجارية أو بالعقوبات أو الشئون الدولية الخاصة والعامة ، فأكثر ما تقع عليه من الكتب التى تكشف لك عما تبحث عنه كتب القضاء وأحكامه ، وما تنطوى عليه هذه الأحكام من مبادىء ، تطبق فى القضايا المماثلة فى أنحاء الدولة جميعا

هذا النظام بعينه ، كان ولا يزال الأساس للقضاء وللفقه عند المسلمين.. فكتب الفتاوى هى المرجع الأول للأحكام . وأنت اذا أردت أن تبحث موضوعا فقهيا أو قضائيا ، فأكثر ما ترجع اليه كتاب ابن عابدين والفتاوى الحامدية والفتاوى الهندية وما اليها اذا كنت تريد أحكام الفقه الحنفى ..

ومثل هذه الكتب تماما ، هى ما نرجع اليه لمعرفة أحكام المذاهب الأخرى . وهذه الكتب كلها من طراز الكتب الانجليزية التى أشرنا اليها .. فكلها تذكر قضايا فصل فيها القضاة برأى ، أصبح مبدأ تشريعيا مسلما به ، وأصبح لذلك مرجعا للقضاة ولجميع المشتغلين بالقانون والفقه من بعد

والقاضى العادل فى البلاد الاسلامية ، كان ولا يزال يتمتع بالمكانة والاستقلال اللذين يتمتع بهما القاضى العادل فى الدول الديمقراطية جميعا. ليس لأحد على هذا القاضى سلطان ، وسلطانه نافذ فى الناس جميعا . وما دام الناس مطمئنين الى عدله ، فله أن يجتهد فى قضائه ما وجد الى الاجتهاد سبيلا ..

فاذا رأى يوما أن يعدل عن رأى رآه سلفه من القضاة الذين شهد لهم

الناس فى عصرهم بالنزاهة والعدل ، بل اذا رأى يوما أن يعدل عن رأى رآه هو من قبل .. اقتناعا منه بأن رأيا غيره أدنى الى الحق والى تحقيق المنفعة العامة ، كان بعمله هذا يؤدى واجبــا ذا قيمة فى الحياة الفقهية ، ما دام هذا الرأى قائما على القواعد السليمة المقررة للعدل بين المسلمين

والواجب الذى يؤديه القاضى فى هذه الناحية هو أداة التطور الفقهى ، وهو الذى يجعل الفقه كفيلا دائما بأن يحقق الرخاء والأمن والسلام فى حدود الحق والعدل

وفرنسا التى درجت ، منــذ قرن ونصف قرن على الأقل ، على ســنة التشريع المقنن .. تعتبر الفتــاوى وأحكام القضاء مناهل أساســية لحياة العدالة . ومجموعات دالوز وسيرى ، وكتب جارسون وأمثاله ، تقيــد الأحكام والفتاوى على النحو الذى قيد به المسلمون من قبــل أحكام قضاتهم وفتاوى مفتيهم ، وتتخذ منها مرشــدا لقواعد العدل ولتطور التشريع ..

الاسلام وتطور التشريع

يحاول بعضهم أن يصور الاسلام تصويرا لا يتفق مع ما قدمنا ، ويذكر سندا لرأيه أن التشريع والقضاء فى الاسلام مقيدان بالقرآن الكريم تقييدا يحول دون التطور الذى يقضى به النظام الديمقراطى . وهذا الرأى خاطىء ، ان كان صادرا عن حسن نية .. فالفقه الاسلامى يعتمد على القرآن الكريم اعتمادا أساسيا . هــذا صحيح ، لــكن ما ورد فى القرآن من التشريع لا يتخطى القواعد العامة التى تقرها قواعد العدالة مصورة فى مثلها الأعلى.. والقواعد العامة الواردة فى القرآن قليلة ، لم تتناول من التفاصيل الا أمورا بذاتها محصورة العدد جدا . ولهذا رأى المسلمون منذ العصر الأول ، أن يجعلوا مصادر الفقه والتشريع أربعة : الكتاب ، والسنة ، والقياس ، والاجماع ، وأن يكلوا الى القاضى تطبيق هذه القواعد مع مراعاة أدق صور العدالة

والسنة فى الفقه الاسلامى هى ما تواتر من الأحكام عن رسول الله .. وليس يتسع المقام للحديث عما ثبت بالتواتر من هذه الأحكام . وحسبنا أن نذكر ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انكم ستختلفون من بعدى ، فما جاءكم عنى فاعرضـوه على كتاب الله .. فما وافقه فمنى ، وما خالفه فليس عنى »

وقد قال ابن خلدون ، وهو يتكلم عن الحديث : « لو انتقدت الروايات — يقصد روايات الحديث — من جهة فحوى متنها ، كما تنقد من جهة سندها ، لقضت المتون على كثير من الأحاديث بالنقض . وقد قالوا ان من علامة الحديث الموضـوع ، مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة فى الشريعة أو للبرهان العقلى أو للحس والعيان وسائر اليقينيات »

أما الأصل الثالث من أصـول الفقه ، وهو القياس ، فمرجعه العقـل ومنطقه ، والى العلم بالكتاب والسنة

بقى الأصـل الأخير وهو الاجماع .. وهـذا الأصـل هو الظـاهرة الديمقراطيـة الواضحة التى تدل على أن حق الشعب فى الحكم ، وفى التشريع ، مقرر فى الاسلام على وجه لا يحتمل مناقشة أو جدلا . ولو أنك رجعت الى كتب الأصـول والفقه ، لتبينت أن القواعد التى تسير عليهـا ديمقراطية هذا العصر فى التشريع والتى ترمى دائما الى الملاءمة بين المنطق العقلى والعدل وبين حاجات الناس ومنافعهم — هى بعينها القواعد التى قررتها هذه الكتب الاسلامية

يجب علـىّ أن أعترف مع هذا الذى قدمت ، بأن القواعد التى وردت فى القرآن — وان تكن قواعد عامة — هى قيد للمشرع . وذلك هو ما دعا بعضـهم الى الظن بأنها لا تدع للارادة العـامة ، الحرية فى التشريع والحكم . لكن التاريخ أثبت أن هذه القواعد ضرورية لحياة الديمقراطية ، فلا يمكن الخروج عليها

خذ مثـلا لذلك ، المبادىء الاقتصادية المقررة فى كتاب الله .. هـذه المبادىء لا ترضى عن الفردية المطلقة القائمة على أساس من الأنانية الذاتية

التى لا حد لها ، بل هى تدعو الى نوع من الاشتراكية جدير بأن يطلق عليه اسم الاشتراكية الاسلامية . لكن هذه الاشتراكية الاسلامية ، لا تتعدى ما يقتضيه تضامن الجماعة ، وتدعو اليه مبادىء الرحمة الانسانية التى تعتبر فى الاسلام قاعدة مقررة لا كمالا نفسيا وكفى ..

ثم ان هذه المبادىء الاقتصادية المقررة فى القرآن ، تأبى اباء صريحا أن تزيد الاشتراكية على هذا القدر ، وترفض رفضا باتا هدم الملكية الخاصة ، وهى لذلك تقف فى وجه المبادىء الشيوعية التى قررها كارل ماركس بكل قوة وشدة

ومثل آخر من المبادىء التى قررها القرآن ، يتصل بالأسرة ويدخل لذلك فى نطاق الحياة الاجتماعية . فالزواج والأبناء والتوارث من الأمور التى لا يصح للمسلمين الخلاف على مبدئها ولا على ما ورد فى القرآن عنها .. فاذا اعتبرت هذه المبادىء وأمثالها قيدا لارادة الشعب فى التشريع ، فهو قيد تقتضيه الحياة الديموقراطية ..

وها نحن أولاء نرى أن ما يخالف هذه المبادىء قد استحال قيامه فى انجلترا وفرنسا وأمريكا والديموقراطيات كلها ، وانه حيث قام ألغيت المبادىء العامة للديموقراطية ، مبادىء الحرية والأخاء والمساواة ، وقامت مقامها مبادىء الطغيان والحكم المطلق ..

ولو أن الطغيان رفع عن كواهل الأمم التى قامت فيها المبادىء التى تخالف ما أسلفنا مما قرر القرآن الكريم لرأيت الناس يعودون الى هذه المبادىء شيئا فشيئا ، لأنها من فطرة الانسان ، كما أن الحياة الديموقراطية من فطرته

لا عجب بعد الذى قدمنا ، أن تنزع الشعوب الاسلامية كلها فى العصر الحاضر الى ناحية الديموقراطية ، وأن تجعل تشريعها على النظام الديموقراطى وسيلتها للحياة وللرقى والتقدم .. وهى اذ تنزع هذا المنزع عن ايمان بالديموقراطية ، يؤدى بها الى الدفاع عنها بكل قوتها ، انما تؤيد حكم الاجماع فى حدود القواعد التى نص عليها القرآن الكريم ..

وهى فيما تصنع من ذلك لا تخالف تاريخها ولا تخرج عليه ، وانما تسير فى طريق التطور الطبيعى للحياة الانسانية . فقد كان حكم الشعب نفسه ، أساسا للحكم الاسلامى منذ العهد الأول . وانما اختلفت الصور التى صور فيها نظام هذا الحكم باختلاف العصور ، كما جاءت عصور مظلمة أساءت اليه وجنت عليه

صور الحكم الديموقراطي

تختلف صور الحكم الديموقراطي في العصر الحاضر بين النظام النيابي والنظام البرلماني ، كما تختلف بين الملوكية والجمهورية . على أن هذه الصور ليست قديمة العهد ، وانما ترجع الى ثلاثة قرون أو نحوها في انجلترا ، وترجع الى عهد الثورة الفرنسية في فرنسا ، والى عهد الاستقلال في أمريكا

أما اذا نحن رجعنا الى صور الحكم الديموقراطي في العصور القديمة ، وبخاصة في اليونان ، فقلما نجد هذا الحكم ممتدا في أمة يبلغ عددها الملايين .. وانما نجده على الأغلب في مدن أو مقاطعات محصورة العدد على نحو ما نعهده اليوم في سويسرا . لكنه كان محتفظا دائما بالمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه الديموقراطية ، مبدأ حكم الشعب نفسه عن طريق التمثيل الصحيح والمناقشة الحرة واقرار رأي الأغلبية

ونحن اذا رجعنا الى الحكم الاسلامي في عهوده الأولى ، أي منذ ألف وثلاثمائة سنة وأكثر ، وجدنا المبدأ الأساسي للديموقراطية مبدأه ، ورأينا الصور التي تصور فيه تختلف بعض الاختلاف عما نعهده اليوم في نظم عصرنا الحاضر ، ولكنها تتفق وإياها في الغاية وفي المبدأ

ولا غرابة في ذلك ، فقد نشأ الاسلام في بلاد العرب ، وكان كتابه عربيا ، وكان رسول الله به عربيا . وقد كانت بلاد العرب في ذلك العصر تعيش في نظام ديمقراطي بحت ، أدنى الى نظام سويسرا اليوم والى نظام المدن اليونانية القديمة . ولقد كانت الحرية التامة أعز شيء على العربي ، بدويا كان أم حضريا

وكان أهل القبيلة أو أهل المدينة يجتمعون للنظر في شئونهم العامة ، وللقضاء فيما يقوم بينهم من المنازعات . وكانت دار الندوة بمكة ، مكان هذا الاجتماع بالنسبة للمدينة الاسلامية المقدسة من عهد ابراهيم .. فكان

طبيعيا أن ينعقد نظام الحكم في الاسلام على هذا الأساس العربي الصريح ، وأن يكون ديموقراطيا بالمعنى الذي يفهمه العربي من الألفاظ التي ترادف هذه الكلمة في لغة ذلك العصر .

وأنت اذا رجعت الى بيعة أبي بكر ، وبيعة عمر ، وبيعة عثمان ، وجدت هذا المعنى واضحا فيها تمام الوضــوح ... فقد كان النـاس يجتمعون ويختارون خليفتهم ثم يبايعونه . ولم يكن هؤلاء الخلفاء يتولون السلطة التشريعية ، لأن هذه السلطة كانت متروكة الى القضاة ــ كما ذكرنا من قبل ــ وكان القضاة يستمدون قضاءهم من القرآن الكريم ، ومن السنة ، ومن القيــاس ، ومن الاجماع .. ثم كانت أحكامهم ، كما كانت فتاوى العلماء ، هي الأساس الذي يقوم عليه الفقه ، وتجري على مقتضاه المعاملات بين الناس .

كان الخلفاء اذا انما يتولون السلطة التنفيــذية ، على حــد تعبيرنا في النظام الديمقراطي . فهل كانوا يتولونها مستبدين لا يحاسبهم أحد ، أم انهم كانوا يحاسبون وكانت عليهم رقابة سواء من نوع الرقابة البرلمانية في أوروبا ، أو من نوع الرقابة النيابية في أمريكا .. اذا كانت عليهم رقابة أيا كان نوعها ، لم يبق ريب في أن نظام الحكم الاسلامي نظام ديموقراطي ، ان اختلف في الصورة عما نألف اليوم ، فهو متفق معه في المبدأ والأساس تمام الاتفاق .

لما تمت البيعة لأبي بكر ، خطب النــاس ، فقال : « لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينوني .. وان أسأت فقوموني » وقال : « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

وهذا صريح في أن أبا بكر يقر بحق الرأي العام في مراقبته وارشاده ، ويذهب في ذلك الى حد الاقرار لهذا الرأي العام بعصيانه اذا هو عصى الله ورسوله ..

ونحن اذا أردنا أن نرتب على هــذا الكلام نتيجته المنطقية ، لم نكن

مخطئين فى القول بأن الذين بايعوا أبا بكر كان لهم حق محاسبته وتقويمه ، فان عصى كان لهم حق العصيان ، وبعبارة أخرى كان لهم حق عزله . ولا نحسب معنى أبلغ فى تقرير مبادىء الديموقراطية من هذا المعنى

وكان عمر بن الخطاب بعد أن أصبح أمير المؤمنين يخطب الناس يوما بمثل المعنى الذى تحدث فيه أبو بكر ، ويذكر للناس أن لهم أن يقوموه ان رأوا فى تصرفاته عوجا . ولقد أجابه أحد الحاضرين بهذا الجواب الذى يحفظه كل مسلم عن ظهر قلبه : « والله يا عمر ، لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا »

هـــذا الجواب يشهد لعمر بأنه كان رجل عدل وصدق ونزاهة .. لكنه يشهد كذلك بأن العرب ، كانوا يعرفون ما لهم من حق فى محاسبة صاحب السلطان عليهم ومراقبته .. شأنهم فى ذلك كشأن أهل اسبرطه وأثينا فى اليونان القديمة ، وشأنهم كشأن الأمم الديموقراطية اليوم

والنظام النيـــابى القائم فى أمريكا ، لا يعرف المسئولية الوزارية على الصور المقررة فى النظم البرلمانية .. فاذا كان العرب لم يعرفوا المسئولية البرلمانية هم الآخرون ، فقدكان الحاكم مسئولا أمام الرأى العامكمسئولية رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . ونتيجة هذه المسئولية ، أن لا يجدد الرأى العام انتخاب هذا الرئيس متى تمت مدته ، أو يضطره للتخلى عن منصبه باظهار عدم الرضا عن تصرفاته أو بعصيان سياسته ، على حد تعبير أبى بكر

مدة الحاكم الاسلامى

لماذا لم تحدد مدة الحاكم الاسلامى فى الصدر الأول ، كما تحدد مدة الرئاسة لرؤساء الجمهوريات فى عصرنا الحاضر ؟ وهلا ينهض ذلك حجة على أن الفكرة الديموقراطية كانت ناقصة عند العرب ، وبقيت ناقصة حين نفذها المسلمون ؟

الواقع أن التفكير فى هـــذا الأمر ، لم يدر بخاطر المســـلمين الأولين

لاعتبارات جوهرية .. أولها ، أن أبا بكر لم تطل خلافته .. أكثر من سنتين وأشهر ، وأن عهده وعهد عمر كانا جميعا عهد فتح متصل انفسحت به أطراف الأمبراطورية الاسلامية شرقا وغربا .. فلم يكن العرب ليقيموا أثناء ذلك فى شبه الجزيرة ، بل كانوا مشتغلين خارجها بالغزو ومغانمه والنصر وأعياده ..

وقد ألفت الأمم فى كل العصور ألا تفكر فى انتخابات أو ما يشبهها فى أوقات الحروب ، حين يكون الاستقرار الداخلى جوهريا لحياة الدولة .. ثم ان أبا بكر وعمر ، كانا حاكمين من طراز لم يعرف التاريخ له نظيرا .. لم تغير الخلافة ولا غيرت الامارة على المسلمين من حياة أى منهما ، ولم تنتقل به من داره الى دار أخرى .. بل لقد كانت نظريتهما فى تولى أمور الدولة قائمة على أساس من انكار الذات ، بلغ حدا يحسبه أهل جيلنـا ممعنا فى المبالغة ..

نسى كل واحد منهما ، منذ تولى أمور المسلمين ، نفسه .. ونسى أهله وأبناءه ، وتجرد لله تجردا مطلقـا ، وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج تحقيقا لمعنى الأخاء فى أسمى صوره ، وايذانا بأنه ليس له فى الحياة هوى ، وانه لذلك يقدر على أن يقيم بين الناس عدلا منزها لا يعرف محاباة ، ولا يعرف الا حق الله فى أن يعيش الناس جميعا فى ظل عدله ، جل شأنه ، آمنين مطمئنين

فلما انقضى عهد أبى بكر وعمر ، كانت رقعة الامبراطورية الاسلامية قد انفسحت .. ومع ذلك بقى الحكم عربى الأساس ، ديموقراطى المبدأ ، حتى قامت الثورات والفتن بين على ومعاوية ..

وقد تأثر الحكم الأموى بهـذه الثورات لاريب .. لكنه بقى مع ذلك قريبا من المبدأ العربى الذى يقدس الحرية ، ويتفق وما نفهمه اليوم من الديموقراطية ..

وقد لبث الحكم كذلك طيـلة عهـد الملوك الأولين من الأمويين فلما استعرت الثورات ثانية بين الأمويين والعباسيين ، ولما دخل الفرس ثم دخل

الروم فى البلاط الاسلامى ، بدأت هذه المبادىء العربية التى تتفق والروح الاسلامى الصحيح تتأثر بالبيئة الجديدة ، ثم طغت هذه البيئة عليها ، ثم آمن ملوك المسلمين بحقهم المقــدس فى الملك ، كما كان يؤمن به ملوك أوروبا .. ثم كان من أثر ذلك أن تدهورت الامبراطورية الاسلامية ، وان بدا عصر الانحلال الذى استمر أجيالا وقرونا

ليس من الانصاف أن يحاسب الاسلام عما استحدث فى هذه الأجيال ، مما يخالف مبادئه ولا يتفق وتعاليمه .. وقد بينا بوضوح ، ما تنطوى عليه هذه التعاليم ، وما تقرره هذه المبادىء ، على ما صورت فى أول عهد الناس بهذا الدين

وليس ثمة شبهة فى أن هذه المبادىء تتفق ومبادىء الديموقراطية ، ولا شبهة كذلك فى أن المسلمين يجب عليهم أن يقيموا أنظمة الحكم فى بلادهم على أساس من هذه المبادىء ليصوروا هذه النظم كما يشاءون .. ليجعلوها برلمانية أو نيابية .. ليقيموها على أساس المسئولية الوزارية أو المسئولية العامة أمام الرأى العام ، مسئولية من نوع ما هو حاصل اليوم فى أمريكا ، وما كان حاصلا فى عهد الخلفاء الراشــدين ، ليختاروا من ذلك أو مما يشبهه ما يشاءون ..

لكن الأساس يجب أن يكون دائما حكم الشعب نفسه عن طريق التمثيل الصحيح ، والمناقشة الحرة ، والانتهاء الى رأى الأغلبيــة ، ويجب على المسلمين أن يدافعوا عن المبادىء التى قررها دينهم بكل قوتهم .. ففى ذلك تثبيت لما يدينون به ، وما تتحقق به آراؤهم الاسلامية السليمة

فأما الذين يحاولون التدليــل على أن الاسلام يقر حكما غير الحكم الديموقراطى ، ويلتمسون الحجة على ذلك بما كان فى عصور مختلفة من حياة الأمم الاسلامية ، فأولئك يخالفون المبادىء الجوهرية للاسلام على ما خرج فى صفائه من شبه الجزيرة ..

وحسبى دمغا لحجة هؤلاء ، أن المسلمين لم يصبهم ما أصابهم فأحزنهم الا بفضل هذا الحكم المطلق .. وما كان لنظام جنى على المسلمين هــذه

الجناية أن يكون نظاما اسلاميا يقره المسلمون ويحترمونه !.. فأمة الديموقراطية الاسلامية ، على ما خرجت من شبه الجزيرة ، فهى التى جعلت للاسلام ما أراده الله له ، وما حفظ حتى اليوم كيانه

ولم تقف المبادىء الديموقراطية فى الاسلام عند نظام الحكم فى أمة بذاتها ، بل لقد تعدت ذلك الى العلاقات الدولية وتنظيمها .. فاحترام المعاهدات ، ومقاتلة الباغى حتى يفىء الى أمر الله ، واحترام المحايدين والسكان الآمنين .. كل ذلك وما اليه مما تفرضه المبادىء الديموقراطية ، قد فرضه الاسلام وقرره القرآن الكريم

الحياة الدولية

الاسلام دين حرية ، وأخاء ، ومساواة .. والتشريع والقضاء ، ونظام الحكم ، فيه صورة من صور الديموقراطية .. كما فهمها اليونان الاقدمون ، وكما نفهمها فى العصر الحاضر .. أفكان ذلك شأنه فى الحياة الدولية كذلك ؟.. وهل قرر فى علاقات الدول بعضها مع بعض من المبادىء ما يقارن بما تقرر فى عصرنا الحاضر ؟.. وان يكن من ذلك شىء ، فهل تتفق هذه المبادىء وما تدين به الأمم الديموقراطية ؟

وطبيعى ألا يغفل الاسلام العلاقات الدولية ، وقد كانت معروفة أول ظهوره ، وكانت معروفة قبله بمئات السنين بل بألوفها .. لكن الذى قد يعجب له بعضهم أن يكون الاسلام قد نادى بالفكرة الدولية التى حققتها الأمم الديموقراطية سنة ١٩١٩ فى أعقاب الحرب الكبرى الماضية ، أقصد فكرة عصبة الأمم ..

والواقع أن هذه الفكرة ليست الا تحقيقا لمعنى الديموقراطية فى الحياة الدوليـة على الوجه الذى تتحقق به فى الحيـاة القومية .. والأسـاس الذى تقوم عليه ، هو بعينه أساس الحرية والأخاء والمساواة .. المساواة بين الأمم الصغيرة والكبيرة ، وحريتها فى ابداء رأيها فى كل مسألة تعرض على العصبة ، وسعى الدول المشتركة فيها جميعا لتحقيق معنى التعـاون والأخاء توطيدا للسلم ودفعا للحرب

وذلك ما تجده فى الفكرة الاسلامية .. فأنت ان رجعت الى عهدة هذه العصبة ، وجدتها كلها تتلخص فى قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احـداهما على الأخرى فقـاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » ، « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .. هـذه الآيات تتناول مواد العهـدة كلها

تقريبا ..

ولست أشك فى أن قيام العصبة على أساس من هذه المبادىء الواردة فى القرآن الكريم ، والتى أقرتها الأمم الديموقراطية العريقة فى الحضارة فى عصرنا الحديث ، هو وحده الوسيلة الأكيدة لاستقرار السلام فى العالم

على أن الاسلام والمسلمين ، كانوا يقدرون أن قيام عصبة للأمم على هـذا الأساس الديموقراطى ليس من الأمور اليسيرة ، وان رضـا الأمم جميعا بهذا النظام — عن طواعية واختيار — لا يتحقق الا بعد عصـور طويلة .. لذلك قرروا مبادىء اتبعوها فى الأزمان المختلفة ، ثم خولفت فى أزمان أخرى ، تبعا لتطور الأحوال مما أشرنا اليه فى الفصول السابقة ..

ومن أهم المبادىء التى قررها الاسـلام احترام العهود وعدم الاخلال بالمعاهدات .. وهذا المبدأ أساسى فى الحياة الدولية الاسلامية ، حتى لقد ضحى المسلمون الأولون من أجله أكبر التضحية

لما فتح رسول الله مكة ، كان العرب من مختلف الأديان يحجون الى الكعبة ، ويعتبرون ذلك من عباداتهم لآلهتهم .. واذ فرض الاسلام الحج الى مكة ، فقد أوحى الى رسول الله ، ما اقتضاه ان بعث على بن أبى طالب فى موسـم الحج يعلن الى النـاس بمكة أن البيت الحرام أصـبح للمسلمين دون غيرهم ، وانه لايصح لمشرك أن يحج بعد ذلك العام . مع هذا ، ومع أن الأمر الذى نزل به من عند الله كان صريحا فيه ، فقد اشتمل هذا الأمر على استثناء صريح للذين عاهدوا رسول الله من المشركين ..

لذلك قال على حين أعلن للناس انه لا يحج بعد ذلك العام مشرك ، انه من كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته . وهو فى ذلك انما نفذ قوله تعالى فى سورة براءة بعد انذار المشركين ومنعهم من الحج : « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصـوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين »

ومن قبل ذلك عقد رسول الله عهد الحديبية مع أهل مكة .. وكان من شروط هذا العهد ، أن من جاء محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ،

ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه . وما كاد هذا العهد يوقع حتى أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو الى المسلمين يريد أن يذهب معهم الى المدينـــة بغير اذن أبيه . ومنعه أبوه ، وجعل يجره ليرده الى قريش ، فنادى : « يا معشر المسلمين !.. الرد الى المشركين يفتنونني فى دينى » ، وكان جواب رسول الله : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا . انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وانا لا نغدر بهم »

وبعد زمن من ذلك ، خرج أبو بصير من مكة الى المدينة بغير اذن مولاه ، فكتب أهل مكة الى النبى يطلبون رده .. فأمره أن يعود الى قومه ، وقال له : « يا أبا بصير انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، فانطلق الى قومك »

ولما تولى أبو بكر خلافة رسول الله ، فارتدت العرب ، فانتصر خالد بن الوليد على مسيلمة بن حبيب المتنبىء باليمامة .. عقد خالد صلحا مع أهلها من بنى حنيفة ثم انه جاءه أمر من أبى بكر ، يخالف نصوص هذا الصلح . ومع أن خالدا انما كان يعمـــل باذن أبى بكر ، فانه احترم المعاهدة التى عقـــدها مع أهل اليمـــامة .. وأجاز أبو بكر تصرفه فى ذلك ، ورأى فيه ما يتفق ومبادىء الاسلام الأساسية

والأمثال على الوفاء بالعهـــد واحترام المعاهدات الدولية مستفيضة فى تاريخ المسلمين ..

أما فى الحرب ، فقد كان المسلمون متأثرين بالقواعد المقررة فى عهدهم فى مختلف البلاد ، ومن بينها الأمبراطوريتان البيزنطية والفارسية . وأنت لا تستطيع فى الحرب الا أن تقابل عمل عدوك بمثله ، أو على الأقل بما يزيل أثره ..

على أن المسلمين قد وضعوا قواعد انسانية سامية نفذتها جيوشهم فى كل حالة ، لم يضطرهم العدو فيها الى الخروج عليها .. من هذه القواعد ، ما ذكره أبو بكر فى وصيته لجيش أسامة بن زيد ، اذ قال : « لا تخونوا ،

ولا تغدروا ، ولا تمثلوا .. ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة .. ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيرا الا لمأكله »

وكتب أبو بكر فى خاتمة كتاب بعث به الى قائده المهاجر بن أبى أمية المخزومى ، حين بلغه انه مثل ببعض أعداء الاسلام : « اياك والمثلة فى الناس ، فانها مأثم ومنفرة الا فى قصاص »

ولم تكن هذه القواعد التى جرى عليها المسلمون ، تقتصر على ما بين الأمم الاسلامية بعضها وبعض .. فما ذكرناه عن النبى حدث مع المشركين . ولم يكن الخلاف فى الدين سببا قط فى نقض العهود .. كان أهل نجران نصارى يقيمون باليمن ، وقد أقاموا على دينهم ، وتعاهدوا مع رسول الله على الجزية ، فلما تولى أبو بكر الخلافة ، أقام أهل نجران على عهدهم ، فاحترمه أبو بكر .. بل جدده معهم باحترام « ملتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وغائبهم وشاهدهم وأسقفهم ورهبانهم وبيعهم حيثما وقعت وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير »

هذه بعض القواعد التى أقرها الاسلام فى أمر العلاقات الدولية .. وهى تتفق مع أحدث القواعد الديموقراطية فى عصرنا الحاضر

نقف الآن هنيهة لنسأل : كيف التقى الاسلام والديموقراطية فى الأمور الجوهرية جميعا ؟.. فقد ثبت لنا فى البحوث الأربعة التى قمنا بها أنهما يلتقيان فى المبادىء العامة ، وفى أسس التشريع والقضاء ، وفى نظام الحكم ، وفى تنظيم العلاقات الدولية

والاجابة على هذا السؤال يسيرة .. فالاسلام والديموقراطية يتجهان جميعا وجهة مشتركة ويرميان الى غاية واحدة : سعادة الانسانية وأمنها وسلامها . وغرضهما فى هذا انسانى مطلق لا تحده حدود القومية ، ولا الجنسية ولا اللغة ولا غيرها من الحدود .. وهما يعتمدان فى اتجاههما وفى تحقيق غايتهما على توجيه الفطرة الانسانية توجيها ، يسمو بها على حكم الهوى ويجنبها نزغ الشهوات

ويتجاوز الاسلام الديموقراطيــة فى غايته .. فهى تحد غايتها بهــذه الحياة ، أما الاسلام فيتعدى هذا الحد .. شــأنه فى ذلك شــأن الأديان السماوية الأخرى

وانما يعتمد الاسلام ، وتعتمد الديموقراطية ، على الفطرة الانسانية .. لأن كل ما يخالف هــذه الفطرة لا بقاء له على الحيــاة . من ثم تعرضت المذاهب الاقتصادية القائمة على منطق العقــل المطلق لفشل كل تجربة ، قصد بها الى اقامة نظام على أساس هذه المذاهب ..

لمــاذا ؟.. لأن فطرة الانسان مركبة ، وليست بسيطة .. فهى تتصــل بالعقل ، وبالعاطفة ، وبالهوى ، وبالشهوة ، وتنزع الى السمو اذا وجدت التوجيه الصالح .. لذلك كان العقل وحــده ، بمنطقه المجرد ، غير كاف لاقامة النظام الاجتماعى .. وكذلك كانت العاطفة وحدها ، والهوى وحده ، وكل عنصر منفرد مما تتكون منه فطرة الانسان ، غير كاف لاقامة هذا النظام الاجتماعى

وهذه العناصر التى تتركب منها الفطرة الانسانية تتفاوت بين الأفراد .. لكن تفاوتها هــذا لا يحول دون توازنها فى نظــام الجماعة . والجماعة الانسانية كائن حى متصل على الأجيال ، فكل تنظيم لحياتنا يهمل عنصرا من عناصر الفطرة الانسانية لا يمكن أن يكون له بقاء أو دوام

لا عجب واتجاه الاسلام والديموقراطية واحــد ، وغايتهما واحــدة ، وطريقتهما فى الاعتماد على الفطرة الانسانية وتوجهها الى الكمال متحدة .. لا عجب أن يلتقيا فى الأمور الجوهرية جميعا ، مما يتصل بشئون الحياة . ثم لا عجب بعد ذلك أن تقصد الأمم الاسلامية فى عصرنا الحديث الى النظام الديموقراطى ، تتخذه أداتها للسعادة الانسانية وللامن والسلام .. ولا عجب فى أن تدافع عنه بكل قوتها ، لا تدخر فى هذا الدفاع وسعا ، ولا ترضى عن النظام الديموقراطى بديلا

الإسلام والحريات الأربع

— ١ —

الإسلام وحرية العقيدة

* حرية العقيدة ومقررات الاسلام
* الحرية والاختلاف المذهبى
* حرية العقيدة والتقدم

حرية العقيدة ومقررات الاسلام

كانت نزعة السيادة التحكمية هى بعض ما أدى الى الحرب العالمية الأخيرة وأثار لهيبها ، فكان طبيعيا أن ينص فى مواثيق التنظيم الدولى الحديثة على حرية الرأى والتعبير عنه ، وحرية العقيدة واقامة شعائرها

فهل يتفق هذان المبدآن مع مقررات الاسلام أو يخالفانها ؟..

ليس من غرضى أن أبحث الأمر على طريقة الجدل الفقهى ، لأقرر قاعدة حاسمة أعتبرها حكما قاطعا .. فالذين يذهبون هذا المذهب فى بحث المبادىء ، يتعرضون فى أغلب الأحيان للخطأ . ذلك بأن المبادىء تكونت على الزمان بتأثيرات شتى عناصرها ، وهى لذلك تختلف فى واقع الحياة اختلافا يتعذر معه الفصل بينها . ولذا أبحث هذا الأمر على ضوء الواقع من شئون الحياة لأرى هل يتفق المبدآن مع مقررات الاسلام الذى أدين به ويدين به مئات الملايين من الناس ، بقدر ما يتفقان مع مقررات المسيحية التى يدين بها مئات الملايين من الناس

وفى هذا الشأن لن أتردد فى القول ، بأن المبدأين يتفقان مع مقررات الاسلام أيما اتفاق ..

وبيانا لذلك ، أبدأ بالكلام عن حرية التدين :

صحيح أن الاسلام يجزى المرتد عنه بالقتل .. لكن المسيحية هى الأخرى ، تهدر دم المرتد عنها . وكذلك تفعل الأديان الأخرى غير الاسلام والمسيحية . أما فيما وراء ذلك ، فان الاسلام صريح فى أنه لا اكراه فى الدين ، كما يقرر أن الصالحين من أهل الكتاب لهم جميعا ثوابهم عند ربهم جزاء بما عملوا ، وقد طبق التعبير بأهل الكتاب فى عهد عمر بن الخطاب على قوم من أبناء فارس ، لم يكونوا من اليهود ولا من النصارى . وهذا يدل أبلغ الدلالة على تسامح المسلمين الأولين الذين لم يفرضوا دينهم فى الأمم التى فتحوها ، ولم يكرهوا الناس حتى يكونوا

مؤمنين

ولأن القـرآن الـكريم ينص على أنه لا اكراه فى الدين ، فقـد ترك المسلمون النصارى واليهود والمجوس فى بلاد الشام والعراق ومصر على دينهم ، ولم يفرضوا الاسلام على أحد منهم . وقد بقيت فى هـذه البلاد الى يومنا الحاضر طوائف لم تدخل فى دين العرب ، بل تمسكت بدين آبائها ، ثم تمتعت بالحماية التى تتمتع بها الأقليـات اليوم فى أكثر الأمم حضارة بل بأكثر منها

وأنت تتلو معاهدات الصلح التى عقدت فى عهـد الفتح الاسلامى . فتراها جميعا صريحة فى النص على احترام عقائد الأهلين فى البلاد المفتوحة واحترام شعائرهم وبيعهم وكنائسهم وأحبارهم ورهبانهم . وقد شعر أهل مصر بعد الفتح العربى بأنهم أكثر حرية فى تدينهم بمذهبهم المسـيحى مما كانوا عليه حين كانوا خاضـعين لسلطان الروم ، اذ كان هرقـل يحاول اكراههم على تغيير مذهبهم واعتناق المذهب الرسمى الذى أراد فرضـه وتطبيقه فى بلاد الامبراطورية البيزنطية

الحرية والاختلاف المذهبي

لقد حدث بعد ذلك العهد الأول ، أن كانت حرية التدين مقيدة فى بعض الأزمان ، وأن القتـال كان ينشب بين أهـل المذاهب المختلفة فى الدين الاسلامى بسبب هذا الاختلاف المذهبى . لكن هـذا الأمر كان يقع فى البلاد المسيحية كما كان يقع فى البلاد الاسلامية ، لأن السلطات الدينية فى ذلك الوقت هى بعينها السلطات الزمنيـة ، وكانت لذلك تعتبر مذهبها الدينى من نظام الدولة ، بل أساس هذا النظام ، الا أن هـذه الحروب المذهبية كانت تنتهى حينا بظفر مذهب بعينه ، وحينا آخر بانهزام هـذا المذهب نفسـه ، هى التى أقنعت الناس بأن العقائد لا تفرضها القوة انما يؤدى اليها الاقتناع

وليس للاقتناع سبيل غير حرية الرأى وحرية الدعوة اليه ، فاذا اقتنع

الناس بما تنطوى عليه هذه الدعوة ، اطمأنوا الى الرأى فاعتقدوه وآمنوا به

وهذا التطور هو الذى انتهى باقرار الدساتير الحرة لحرية التدين ، كما انه هو الذى دعا الى ايضاح هذا المبدأ فى ميثاق الاطلنطى ليكون من الأسس التى يقوم عليها عالم ما بعد الحرب . واقرار هذا المبدأ يؤدى الى أن ينظر الناس بعضهم الى بعض ــ على اختلاف أديانهم ــ نظرة احترام متبادل ، وأن يلتمسوا فى مقررات أديانهم المختلفة وسائل التقريب بينهم بدون أن يلتمسوا فى هذه المقررات أسباب التنازع والشحناء . فالأديان كلها تدعو الى مبادىء سامية غاية السمو وتناجى الوجدان بأرفع المعانى ، وتدعو النـــاس ليتوجهوا الى الله بقلب سليم يربط بينهم بروابط الأخوة والمحبة والسلام

ونحن المسلمين ننظر الى الأديان الكتابية نظرة تقديس لأننا نؤمن بمـا أوتى عيسى وموسى واسحق ويعقوب والنبيون من قبلهم ، ونؤمن بأن الله الواحد هو الذى هداهم ويهدى من يشاء طريق الخير وسواء السبيل

حرية العقيدة والتقدم

وقواعد الخلق المقررة فى الأديان ، كلها أساسها الحق والخير والايثـار النفسى والعفو عند المقدرة وما الى ذلك من فضائل تعارف الناس فى كل الأمم وفى كل العصور على أنها قوام السعادة للانسان

وليس بين الأديان دين يدعو الى البغضاء أو الانتقام أو الى نقيصة من النقائص . وهى فيما تدعو اليه من الفضائل تسمو بالنفس الانسانية الى المجد الأرفع ، وتناجى خير عناصرها لتزداد سموا ورفعة

لذلك كان المتدين الحق ، الصادق الايمان المطمئن العقيدة ، أدنى الناس الى الكمال أيا كانت العقيدة التى يؤمن بها ، لأن العقائد على اختلافها تدعو الى السمو الانسانى وتحقق غاية الحياة

اذا أدت حرية العقيدة الى أن يتبادل الناس الاحترام ، وأن يلتمسـوا فى الأديان المختلفة أسباب الكمال عن طريق التسامح والأخوة والمحبة ،

كان ذلك من أكثر العوامل الدافعة للتقدم ، المؤدية الى استقرار السلام فى العالم . فانما نشبت الحروب وقامت الثورات الكبرى لأن كثيرين كانوا يشجعون على تجسيم ما بين الناس من أسباب الخلاف ، فتتسع هوة هذا الخلاف بينهم ويصبح سببا للبغض وللعدوان التى تنتهى الى التنازع والى الحرب . وقد اتخذوا الأديان ذريعة لاثارة أسباب العداوة فى بعض العصور واثارة هــذه الأسباب هى التى أدت الى الحروب الصليبية بين المسلمين والنصارى ، والى ما كان بين البروتستانت والكاثوليك من اضطهـاد ومجازر

ولو أن حرية العقيدة كانت مبدأ مقررا فى سالف العصور لعرف الناس التسامح ولما امتحنت الانسانية ، بما امتحنت به ، ولما أصابها يومئذ من الويلات ما أصابها

ولا أدل على ذلك من اطمئنان النــاس الى حرية العقيــدة فى العصور الأخيرة . فقد كانت هــذه الحرية كاملة وكنت ترى مظاهرها واضحة فى انجلترا وأمريكا وفرنسا وفى الأمم الديمقراطية جميعا . ولم تثر مع ذلك من جرائها أية ثائرة ، بل بقى للأديان جميعا من الحرمة فى نفس الناس ما لا يجنى عليه التعصب ولا يذهب به التفريق . فاذا اتجه الناس من بعد الى اعتبار الأديان وسيلة تقارب ومودة بما تدعو اليه من رفعة وسمو ، ولم يسمعوا الى الذين يدعونهم الى التنافس والتنازع بسببها ، تحققت أسباب الوئام والمحبة والسلام

أما ومقررات الاســلام لا تأبى حرية العقيــدة ، ومقررات المسيحية لا تأباها ، فسيكون لهذه الحرية ، التى يؤمن الناس بها صادقين ، أثر خير الأثر فى علاقة ما بين الأمم الاسلامية وغيرها من الأمم نصيرة الحرية

— ٢ —

الإسلام وحرية الرأى

* حرية الرأى أساس من أسس الدين الاسلامى
* ضعف الحرية فى عهد انحلال الامم الاسلامية
* حرية الرأى والتعاون الدولى
* أثر الحرية فى حياة الافراد والجماعات

أساس من أسس الدين

ذكرت أن العالم يضطرب اليوم بمبادىء وآراء تستوقف النظر وتدعو الى التفكير ، ليرى الانسان ما بين هـذه الآراء والمبادىء من ناحيـة .. ومقررات الدين الاسلامى من ناحية أخرى ، من نسب يقربهما أو يباعد بينهما .. وما عسى أن يكون لهذا التقريب أو لهـذه المباعدة من أثر فى علاقات الأمم الاسلامية بغيرها من الأمم التى تدين بغير الاسلام

وتحدثت عما نص عليه ميثاق الاطلنطى من حرية الرأى والتعبير عنه ، وحرية العقيدة واقامة شـعائرها .. وبينت فيما يتعلق بحرية العقيدة أن الاسلام يقر هذه الحرية ، بقدر ما تقرها المسيحية وغيرها من الأديان

فالقرآن يقرر أن لا اكراه فى الدين ..

وتاريخ المسلمين يشهد بأنهم لم يفرضوا الاسلام على أحد فى البلاد التى فتحوها ، وان من أقام على دينه من أهل هذه البلاد ولم يعتنق الاسلام ، تمتع بحماية لا تتمتع الأقليات اليوم فى أكثر الأمم حضارة بأكثر منها

وخلصت من ذلك الى أن فى مقدور النـاس أن يلتمسـوا فى مقررات الأديان على اختـلافها وسـائل التقريب بينهم .. فالأديان كلها تدعوهم ليتوجهوا الى الله بقلب سليم، ليربط بينهم بروابط الأخوة والمحبة والسلام

ولا حاجة بى الى القول بأن الاسلام قامت دعوته على أساس من حرية الرأى والتعبير عنه ، فهو حين دعا الناس الى الايمان بالله .. جعل النظر فى الكون والتأمل فى سنة الله فيه أساس هذا الايمان .. فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها

وقد كان الاجتهاد بالرأى أصلا من أصول الشرع منذ العصر الاسلامى الأول ، وكان هذا الاجتهـاد بالرأى ، يتناول أصول الفقه فى الدين .. فطبيعى أن تكون حرية الرأى مطلقة فيما وراء ذلك من شئون الحياة ..

وهـذا هو الذى جعـل المسلمين الأولين فى مقدمة من نقلوا العلوم

اليونانية والفلسفة اليونانية ، وأقاموا على أساس من تفكير اليونان مذاهب نقلها الأوربيون عنهم من بعد

هذا اجمال لصورة تاريخية تتولى ألوف المجلدات تفصيلها وهي صورة صحيحة كل الصحة مع اجمالها في سطور ..

وحسبك أن تذكر ما كان يقع بين النبي العربي وخصوم الدعوة الجديدة من جدل ، تبلغ فيه المعارك الكلامية ذروتها لتقتنع بأن حرية الرأي كانت أساس هذه الدعوة ، وأن تذكر ما تكرر في القرآن من التثريب على الذين يتمسكون بما وجدوا عليه آباءهم دون النظر فيه وتمحيصه ، لنفي ما فيه من زيف باطل .. لتعلم أن تحرير الفكر من رق الجمود ، كان أساسا من أسس الدين الحنيف ..

أما الاجتهاد بالرأي فكان يقع في عهد رسول الله ، وكان عمر بن الخطاب اماما فيه .. حتى لقد صارت آراؤه من بعد مراجع يأخذ بها أئمة الفقه

وقد أدى نقل الفلسفة اليونانية للعربية الى نشاط عقلي ، تبدو آثاره واضحة في كتب الفلسفة الاسلامية ، سواء منها ما ظهر في الشرق حين كانت دمشق وبغداد والقاهرة عواصم الامبراطورية الاسلامية ، وما ظهر منها في الغرب أيام مقام المسلمين بالأندلس واطمئنان دولتهم في ربوعها

في عهد الانحلال

وانما قضى على هذه الحرية ، وأقفل باب الاجتهاد ، حين بدأ عهد الانحلال .. في هذا العهد ، انقسمت الامبراطورية على نفسها ، واستبد الملوك بأممها المختلفة ، وأصبح شأن العلماء في تلك العهود المهلهلة أن يجدوا ما يؤيد سلطان هؤلاء الملوك

فاذا خرج أحدهم على هذا اللون من التفكير ، أو أراد محاربة المظالم التي تقع في ظل هذا السلطان ، اتهم بالكفر والزندقة وحلت به نقمة الحاكم .. من ذلك العهد بدأ الجمود يقيد الأذهان ، وبدأت الحرية

العقليــة تزول من العالم الاسلامى ، وارتد الناس الى جاهليــة لا تقرها مبادىء الاسلام السليمة

واستنادا الى ما حدث فى ذلك العهد ، ظن بعض المستشرقين ، وبعض الجامدين من المسلمين ، ان الدين الحنيف لا يقر حرية الرأى وحرية التعبير عنه .. ولو أن هؤلاء رجعوا الى الأدب الاسلامى شعره ونثره فى عصر الأمويين وفى عصر العباسـيين ، والى الفنون التى ازدهرت على أيدى المسلمين الذين عاشوا أثناء تلك العهود ، فى بغداد وفارس ، وفى دمشق ، والقاهرة ، والى ما كان منهـا فى الأندلس .. لرأوا نهضة فى التفكير وفى التصور وفى تصـوير الآراء والمذاهب والفنون ، تدل على حرية لا تزيد عنها حريتنا اليوم فى ابداء الرأى والتعبير عنه

وفى عهد الانحلال الذى طرأ على الامبراطورية الاسلامية ، كانت أوربا المسيحية لاتعرف حرية الرأى ، فلم تكن هذه الحرية تمر لأحد منها بخاطر .. وفى هذا العهد ، لما تكن أمريكا قد اكتشفت

وانما بدأ الناس فى أوروبا يثورون بالجمود الدينى فى القرن السادس عشر ، ومع ذلك لم تعترف دولها بحرية الرأى قبل القرن الثامن عشر ، وفى ذلك العصر الذى مهد له « فولتير » و « روسو » واضرابهما فى فرنسا . كان صاحب الرأى يحارب لرأيه ، وكان يحبس أو ينفى من الأرض ، وكان يضيق عليه فى رزقه .. ولم يتقرر هـذا المبدأ على نحو صالح الا بعد الثورة الفرنسية

مع ذلك ، ظلت حرية الرأى تحارب الحين بعد الحين .. حتى اذا قامت الفاشية والنازية فى هذا القرن العشرين ، قضت عليها فى ايطاليا وفى ألمانيا قضاء مبرما . ولهذا رأى روزفلت وتشرشل ضرورة النص عليها فى ميثاق الاطلنطى ، واعتبراها الأساس الذى يجب أن تقوم عليه الحياة الانسانية . فالانسانيــة المحرومة من حرية الرأى محرومة من أول عنـاصر الحيـاة الانسانية الصحيحة ، ومن أقوى عنصر يدفع الى التقدم فى سبيل الكمال

أما والاسلام يقر حرية الرأى والتعبير عنه ، فتعاون الدول الاسـلامية مع الدول التى تدين بغير الاسلام على أساس من هذه الحرية ليس ممكنا وكفى ، بل هو واجب لخير الناس جميعا على اختلاف أديانهم وأوطانهم

والواقع أن التعاون غير مستطاع بين الأمم فى عالم حر ، اذا لم تكن حرية الرأى أساس هـذا التعاون .. فصلة الأمة بالأمة ، كصلة الرجل بالرجل ، لا تقوم الا على أحد الأساسين التفاهم أو الاكراه ..

والاكراه اذلال للروح ، وتدمير لخير مقوماتها وفضائلها ، فهو كذلك فى أمر الفرد وفى أمر الجماعة ، وفى أمر الأمم وعلاقات بعضها ببعض . وهو هو الذى يثير الحروب وما تجر اليه من آلام ودموع وخراب ودمار

أما التفاهم فهو وحـده الجدير بالانسان .. وليس للتفاهم سبيل الا حرية الرأى .. هذا الى ما تؤدى اليه هـذه الحرية من خير يعم الانسانية كلها فى مختلف العصور والأمم ..

ولا حاجة بى الى القول ، بأنا ننعم اليوم فى كثير من معـاركنا ومن مقومات حياتنا بثمرات هذه الحرية بعد ما دفع أصحابها حياتهم ثمنا لها ، لأنهم رأوها أعز من الحياة ، ورأوها وحدها التى تصل بنا الى الحقيقة .. والحقيقة الانسانية ــ وان تكن نسبية ــ هى التى أبلغتنا فى هذا العالم ما بلغناه من رقى وحضارة

أثر الحرية فى الأفراد والجماعات

ويسير عليك أن ترى ما لهذه الحرية من أثر فى حياة الأفراد وفى حياة الجماعات .. فالعلاقات القائمة بين الأفراد على أساس من التفاهم الحر هى التى تبقى ، لأن هؤلاء الأفراد أقاموها مختـارين لا يتحكم أحدهم فى صاحبه ، ولا يكرهه على شىء لايريده ..

والأمر كذلك بخاصة اذا كان هذا التفاهم حرا غير مشوب بشائبة تجعل أحد الطرفين يسعى للتخلص من نتائجه ، اذا واتته فرصة لهذا التخلص ..

وعلاقات الأمم القائمة على التفاهم الحر شـأنها كشأن علاقات الأفراد سواء .. فاذا ارتقى الأمر من مستوى التفاهم على المنافع الخاصة أو العامة الى حرية كل فرد فى اعلان رأيه ، والتعبير عنه صادق القصد حسن النية ، كانت هذه الحرية أقدس شيء فى الحياة وأعزه ، ثم كانت الى ذلك غذاء الحياة الاجتماعية فى الأمة ، حافز الانسـانية كلها الى التقـدم خطوات فسيحة نحو الحضارة المثلى

وتاريخ الانسانية يشهد بهذه الحقيقة .. فقد تنقلت المدنيات فى حقب التاريخ المختلفة من الشرق الى الغرب ، ومن حوض البحر الأبيض الى حوض الاطلنطى والى حوض الباسفيكى ، فلم تكن مدنية تزدهر ازدهارا حقيقيا فى غير ظلال الحرية العقلية الصحيحة ..

فاذا أظلت الحرية الناس ، كانت الفلسفة ، وكان العلم والأدب والفن ، ترتقى كلها وتنتظم الجماعة فى كل طبقاتها ، وتدفع الجميع الى الأمام .. يتنافسون متضامنين فى سبيل الرقى ، فاذا الصناعة تعظم ، واذا الزراعة تينع ، واذا التجارة تتضـاعف ثمراتها .. واذا النشاط الانسانى فى شتى صوره يتضاعف تضاعفا هندسيا مضطردا

ثم لا يكون هذا كله رهنا بارادة رجل يوجهه ، فاذا مات الرجل تضاءل النشـاط وذوت مظاهره .. بل كان ذلك قائما بذاته ، حيا بحياة الجماعة المستظلة بعلم الحرية العقلية ، باقيا ما بقيت هـذه الحرية تغذيه وتجرى بواعث الحياة فيه

والعالم بأسره يتمخض اليوم عن حضارة عالمية عامة ، تشمل العالم كله فى كل أرجائه وأقطاره .. ولا سبيل لهذه الحضارة أن تقوم وتزدهر الا أن تظل الحرية العقلية العالم بأسره ، وأن يتعاون الناس من أقصى الشرق الى أقصى الغرب فى ظلال هذه الحرية لاقامة هذه الحضارة وتثبيت أركانها

وما كان دين من الأديان ، ولا كانت عقيدة من العقائد ، لتحول دون هذا التعاون .. فالأديان كلها أساسها الحق والخير .. وكل حضارة تقوم ويرجى لها البقاء ، لا يمكن أن تقوم أو تبقى الا على أساس من الحق والخير

— ٣ —

الإسلام والتحرر من العوز

* الاسلام والحرية الاقتصادية
* مقررات الاسلام والتحرر من العوز
* الطمأنينة الى العيش وزيادة الانتاج

الاسلام والحرية الاقتصادية

أبنت أن مقررات الاسلام لا تنفى حرية الاعتقاد ، وتؤيد حرية الرأى .. وحرية الاعتقاد وحرية الرأى مبدآن من مبادىء الحرية الأربعة التى نص عليها ميثاق الاطلنطى . أما المبدآن الآخران فهما تحرير الناس من العوز ، وتحريرهم من الخوف

فهل تؤيد مقررات الاسلام هذين المبدأين كذلك ؟.. وان كانت هذه المقررات تؤيدها ، فهل هذا التأييد مطلق أم محدود ؟

وقبل أن أجيب على هذين السؤالين ، أود أن أوضح المفهوم من عبارة « التحرر من العوز » و « التحرر من الخوف » وهذا التوضيح يقتضى بعض الرجعة الى الماضى ، والتذكير لما كان فيه

وأبدأ بالكلام عن التحرر من العوز ..

فقد كان مبدأ الحرية الاقتصادية سائدا فى القرن التاسع عشر على نحو يكاد يكون مطلقا . وكان مذهب الفردية يعبر عن هذه الحرية الاقتصادية تعبيرا حل من نفوس الناس ــ مدى قرن كامل ــ محل الايمان

والمذهب الفردى يقوم على أساس من حرية الفرد المطلقة فيما يصنع وما يدع .. فلا شأن للدولة بالفرد ، ولا سلطان لها عليه ، الا اذا أخل بالأمن أو احتاجت الدولة اليه للدفاع عن كيانها ضد معتد أجنبى ..

من ثم ، كانت الدولة حارسا للأمن فى الداخل والخارج ، وكانت وظيفتها محصورة فى حدود هذه الحراسة لا تتخطاها

وقد أيد كثيرون من فلاسفة القرن التاسع عشر هذه الحرية واعتبروها من سنن الطبيعة .. ورأوها القوام الأساسى لحياة الجماعة .. فاذا نجم عنها تألم أو بؤس ، أو شقى بسببها كثيرون ، فتلك أعراض طبيعية لا مناص من الاذعان لها ، كاذعاننا لثورة البركان اذا ثار ، ولهياج البحر اذا هاج ، ولتدمير العواصف أو الصواعق ما تحصد وما تدمر

وكان هؤلاء الفلاسـفة ، ينظرون الى ما تعانيه بعض الطوائف بسبب هذه الحرية على انه أمر طبيعى يعللونه تعليلا منطقيا ، كما يعللون كسوف الشمس أو خسوف القمر أو جاذبيـة الأرض من ظواهر الطبيعة .. فاذا تحدثوا عن الأجور ، تحدثوا عن قانون الأجور الحديدى كما يتحدثون عن جاذبيـة الأرض ، وقالوا ان انخفاض الأجور وارتفاعها رهن بقانون العرض والطلب .. فحيثما ازدادت الأيدى العاملة نقص الأجر ، وحيثما قلت زاد ..

والأجر ميال فى نظرهم دائما الى الانخفاض لأن ازدياده فى صناعة من الصناعات أو حرفة من الحرف ، يدعو العمال الى الاقبال على تعلم هذه الصنـاعة أو الحرفة ، فيزداد العرض على الطلب ، وتنزل الأجور الى مستوى الكفاف الذى يقيم به العامل أوده .. فاذا بلغت هذا المستوى ، انصرف الناس عن هذه الصناعة أو الحرفة الى غيرها

لم تلبث الحرية الفردية التى تؤدى الى هذه النتيجة الا قليلا حتى طفرت بأفراد الى ذروة الثروة ، بينما بقى المجموع العـامل مضغوطا فى حدود الكفاف . .ونشـأ عن ذلك أن بدأت جماعات العمال تتكون فى صـور مختلفة تطالب فى شدة بما تعتبره حقوقها ..

عند ذلك لم يكن للدولة بد من أن تتدخل باسم الأمن والنظام بادىء الأمر ، وباسم العدل العام بعد ذلك ، لتخفف من ضغط هـذه الحركات الاجتماعية الناشئة . وترتب على ذلك أن قررت بلاد مختلفة مجانية التعليم للجميع ، وأقامت النظام الصحى المجانى للجميع ، ثم أصـدرت تشريعات العمـل تنص فيها على حقوق العمال فى التعويض عن حوادث العمـل ومعاشهم للتقاعد

ولقد كانت المذاهب الاشتراكية ، تجد فى هـذا التطور الاقتصـادى والاجتماعى غذاء يزيدها قوة وتغلغلا بين جماهير العمال . ولمـا كانت الحرب العالمية الأولى قد اشترك فيها ملايين من هؤلاء العمال من مختلف الأمم ، فقد أسرع اشتراكهم هـذا فى نمو المذاهب الاشتراكية فى الأمم

المستعدة لها .. فكانت الاشتراكية الديموقراطية فى فرنسا ، والاشتراكية القومية فى ألمانيا ، والشيوعية فى روسيا

على أن رأس المال ونظامه ، بقى له من السلطان حظ متقارب بين الدول التى أظلته . وتقرير ميثاق الاطلنطى ـ ابان الحرب العالمية الأخيرة ـ حق تحرير الناس من العوز ، كمبدأ للسلام تطور جديد فى تصوير ما يجب أن يكون بين رأس المال والعمل من علاقة

فهل تقر مبادىء الاسلام هـذا التحرير من العوز ، على أنه مبدأ من المبادىء التى يقوم عليهـا المجتمع الانسـانى ؟.. وهل تسـتطيع الأمم الاسلامية لذلك أن تشترك فى تقرير التفاصيل التى ينفذ بها هذا المبدأ مع الأمم التى تدين بغير الاسلام ؟

مقررات الاسلام والتحرر من العوز

لا أتردد لحظة فى القول بأن مقررات الاسلام ، تقر هـذا التحرير من العوز وتدفع اليه .. فقد فرض الاسلام الزكاة ، وقرر الصدقة وجعلهـا للفقراء والمساكين وأبنـاء السبيل ممن عضهم الفقر بنابه ، كما جعل لها مصارف أخرى هى مرافق الدولة العامة

وقد جعل القرآن فى أموال الأغنياء حقا معلوما للسائل والمحروم . ولما بدأت الأموال ترد من البلاد المفتوحة الى مقر الخلافة فى عهد عمر ، فرضت للناس أعطيات لم تقتصر على المحاربين وعلى علية القوم .. بل كان منها لكل فقير حق مدون فى دفاتر العطاء ، اعتبره الخليفة واعتبره أولو الرأى الحد الأدنى لمستوى المعيشة العربية

ان الاسلام يقر الاشتراكية ويقر الملكية الخاصة ، ويقر الميراث ، وما دام الأمر كذلك فالمقادير التى ترضاها الجماعات فى نظامها من هـذه المذاهب والنظم ، متروك تقديرها لساستها ولأولى الأمر فيها .. فكما ان لهم أن يجبوا من الضرائب ما يكفل التعليم العام والصحة العامة ومرافق الدولة جميعا ، على النحو الذى يتصوره أهل عصرهم ، فلهم كذلك أن

يضعوا للأجور حدا أدنى ، وأن يحرروا الناس من العوز على الوجه الذى يتفق مع المصلحة العامة ، وأن يعينوا الحد الأدنى لهذا التحرير

فلن يقال أن عمر بن الخطاب رضى كذا حدا أدنى لعطائه ، ليكون هذا التعيين ملزما اليوم . فلكل زمن تقديره وتصويره .. والتشريع يجارى تصور الناس فى زمن بذاته ، ما دام هـذا التصوير لا يتنافى مع المقررات الأساسية للاسلام

وكيف يرتبط المسلمون اليوم بحد تقرر من قبل لأدنى مستوى العيش ، وقد تغيرت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للحياة خلال القرون التى انقضت من صدر الاسلام الى عصرنا الحاضر ، تغيرا جعلها شيئا آخر غير ما كانت

وحسبك أن تذكر الانقلاب الذى طرأ على العالم بقيام الصناعة الكبرى فيه ، وان تذكر كيف أثار هـذا الانقلاب الانتاج والتوزيع وكيف اهتز بسببه ما كان مستقرا فى العالم ألوف السنين من علاقة بين رأس المـال والعمل ، لترى ما بين العهدين من فرق هائل

والانقلاب الصناعى وليد القرن الماضى .. ما بالك بما حدث من انقلابات اقتصادية قبله ، وما بالك بما سبقه وما عاصره من انقلابات اجتماعية . أما والأمر ما ترى ، فالتقيد بما تقرر فى الماضى ، لا يمكن أن يتفق مع أوضاع الحاضر ونظمه

هذا ، ثم ان الناس كانوا يشكون فى الماضى من القحط يصيب أمة من الأمم ، أو طائفة من الأمم ، أما اليوم فأكثر ما يشكو الاقتصـاديون منه زيادة الانتاج على حاجات الناس زيادة تؤدى الى العطلة ، وتؤدى الى الاضطراب الاقتصادى .. واذا قلت النـاس ، قصـدت بنى الانسان فى مختلف أقطار الأرض . فقـد يسرت وسائل النقل تداول الحاصـلات والمنتجات الزراعية والصناعية ، ولم يبق الخوف من القحط يساور أحدا فى أيام السلم

أما وزيادة الانتاج خطر يهدد العالم الحين بعد الحين ، فرفع مستوى

العيش وتعيين حد أدنى لحاجات الانسان أدخل فى باب العلاج الاقتصادى ، وهو فى نفس الوقت علاج للأحوال الاجتماعية التى تثير الطوائف بعضها ببعض ، كما انه يتفق مع ما يجب للانسان من كرامة ترتبط بوجوده كقوة عاملة ، ينتج عملها الخير الوفير للجماعة الانسانية كلها

الطمأنينة وزيادة الانتاج

والواقع ان ما فى العالم من خيرات ، تتزايد كل يوم بفضل العلم ، وما يمكن للانسان من التحكم فى قوى الطبيعة تحكما يكفل للناس أن يعيشوا جميعا عيشا انسانيا معقولا .. فاذا كان أكثرهم لايزالون فى عوز فمرجع ذلك الى سوء التوزيع

وقد عالج الاشتراكيون مشكلة سوء التوزيع بين رأس المال والعمل واقترحوا لها شتى ألوان العلاج .. وغير الاشتراكيين يرون فى المقترحات الاشتراكية ، أو المتطرف منها بخاصة ، ما لايتفق وما فى الطبيعة الانسانية من عوامل هى التى تدفعها لزيادة الانتاج كما ونوعا ، فاذا كان تحرير الناس من العوز يعالج مشكلة التوزيع ، ويزيد الجماعات الانسانية تمتعا بالخيرات الكثيرة الموجودة فى العالم ، فواجب على الأمم الاسلامية أن تشترك فى تنظيم هذا التحرير ، وقد أصبح جوهريا لحياة العالم وطمأنينته والنتائج التى يصل اليها الساسة وأولو الرأى فيه ، تمس كل واحدة من هذه الأمم كما تمس سلام العالم مساسا مباشر

فاذا استطاع الساسة وأولو الرأى أن يبلغوا من هذا التحرير غاية محمودة ، أدى ذلك الى تقدم العالم خطوة جديدة فى سبيل الكمال . فمن شأن الطمأنينة الى العيش أن تزيد مستوى الانتاج . وليس قصدى من الانتاج ما تثمره الزراعة والصناعة وكفى ، بل أقصد كذلك الى ثمرات العلم والفن .. فكم قتل العوز من ملكات ، وكم قضى على مواهب كانت — لولاه — متحفزة لأن تنتج للانسان فى حياته العقلية وفى حياته المعنوية وافر الخير :

وإذا صحت شكوى الاقتصاديين من وفرة الانتاج المادى ، فلا يزال العالم يشكو الفقر المعنوى .. ولا يزال يطمح للرقى بالنفس الانسانية الى مستوى تعرف فيه معنى الرضا ، وتطمئن الى قيم خلقية يتواضع النـاس فى الحياة الخاصة وفى الحياة العامة عليها ، وتكون مرجعهم فى حسم كل نزاع يقع بينهم فى الحياة القومية أو فى الحياة الدولية

وهذا الطموح فأل خير لاريب .. فاليوم الذى يتفق الناس فيه على هذه القيم هو اليوم الذى يتحررون فيــه من الخوف من غير حاجة الى قوة قاهرة تكفل لهم هذا التحرير والى أن يجىء اليوم الذى يصبح فيه الايمان العالمى بالقيم الخلقية كفيلا وحده بتحرير الناس من الخوف يجب أن نرد هذه الكفالة الى أسباب وقوى أساسها التعاون الدولى على هذا التحرير

— ٤ —

الإسلام والتحرر من الخوف

* ❋ عصبة الامم ومخاوف الناس
* ❋ التفكير فى منع الحرب
* ❋ الاسلام دين سلام
* ❋ دعوة الاسلام الى حياة أفضل

عصبة الامم ومخاوف الناس

لما أعلنت أمريكا الحرب على دول الوسط فى الحرب العالمية الأولى ، كان الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة اذ ذاك ، وكان رجل مبادىء يؤمن بها ويقررها عن عقيدة واقتناع . وكان من عباراته المأثورة عن تلك الحرب انها أثيرت لانهاء الحروب كلها ، وأن الغرض منها أن يكون العالم آمنا لاستقرار الديمقراطية فيه

وكانت فكرة عصبة الأمم مما أريد به انهاء المنازعات بين الدول بالتحكيم . فلما وضعت تلك الحرب أوزارها ، وانعقد مؤتمر السلام والحق عهدة العصبة بمعاهدة فرساى ، رأت أمريكا فى هذه العهدة خروجا بها على مبدأ منرو ، وجرا اياها الى المعترك الدولى ، بمقدار لا مصلحة لها فيه .. فرفضت العهدة ولم تنضم الى العصبة

مع ذلك تألف عصبة الأمم ، وعلق الناس على تأليفها كبير الرجاء فى أن تحل المنازعات الدولية بالتحكيم ، وأن تفرض العقوبات على من يخالفها .. بذلك اطمأنت مخاوفهم من وقوع حرب جديدة

وزادهم اطمئنانا أن الدول الكبرى ، أخذت تعمل على تحديد التسليح ، تريد الوصول الى الحد الأدنى منه .. فانعقدت المؤتمرات المتعاقبة ، واتخذت فيها قرارات زادت الناس أمنا من الخوف ، ومع أن موسولينى قام فى ايطاليا منذ سنة ١٩٢٢ ، فألغى النظام الديمقراطى وأقام النظام الفاشستى على أنقاضه ، لم يدر بخاطر أحد يومئذ أن تهدد ايطاليا سلام العالم أو تخرج على ما تقرره عصبة الأمم

فلما تولى هتلر أمر ألمانيا ، وجعل يقوى فيها روح القومية الجرمانية ، بدأت مخاوف بعض الساسة تثور .. بينما بقى أكثرهم يرى فيه وفى عمله لرقى ألمانيا عنصرا من عناصر السلام . ولم تمض سنوات حتى بدأت ألمانيا تعلن عن حاجتها لمجال أوسع من حدودها التى رسمت فى معاهدة فرساى ،

ثم بدأت تفكر فى ضم الجنس الألمانى فى أوروبا تحت كنفها .. فضمت اليها النمسا ، ثم ضمت السوديت ، ثم طالبت بدانزج وبالممر البولونى

عند ذلك رأت انجلترا أن الأمر لم يبق مقصورا على طلب ألمانيا لمجال حيوى يظهر فيه نشاطها ، وانها تريد التحكم فى أوروبا للتحكم بعد ذلك فى العالم ، فكانت الحرب العالمية الثانية نتيجة لتطور الحوادث فى أوروبا بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٣٩

التفكير فى منع الحرب

ومنــذ بدأت الحرب الثانية عاد النــاس يفكرون فى الوسيلة لاتقاء الحرب .. ولذلك كان التحرر من الخوف رابع المبـادىء التى وقعهـا الرئيسان روزفلت وتشرشل فى ميثاق الاطلنطى . والتفكير فى اتقاء الحرب فى المستقبل يشغل بال الناس جميعا الى اليوم .. ولذلك كثرت المؤلفات التى وضعت تصـويرا لهذا التفكير ، كثرة تزيد على أضعاف مثلهـا فى الحرب العالمية الأولى ، وللناس عن التفكير فى هذا الأمر أكبر العذر ، فما تدمره الحرب من أموال وأرواح مزعج مروع ، ولا يقاس الدمار الذى تم فى حروب نابليون كلها بما وقع من الدمار فى أى عام واحد من أعوام الحرب الأخيرة

والعلم يكشف كل يوم عن جـديد ، هو فى السلم نعمـة واداة رفه وخير ، وهو فى الحرب نقمـة وأداة دمار وموت . فاذا اطرد تقدم العلم ووقعت حرب كبرى ثالثـة فلن يقف تدميرها عنـد حـد ، ولن تودى بالحضارة الأوروبية أو بالحضارة الغربية وكفى .. بل ستودى بكل ما فى العالم من مظاهر التقدم وآثار الانسانية . لا عجب وذلك هو الشأن أن يعظم التفكير فى اتقاء الحرب فى المستقبل

وليس من غرضى أن أشير الى ما أبدى من الآراء لضـمان السلام فى المستقبل ، فالاشارة الى هذه الآراء لايكفيها مثل هـذه الدراسـة ولا تكفيها عدة دراسـات . فهل تتفق مقررات الاسلام ومبـدأ التحرر من

الخوف اتفاقا يطوع للأمم الاسلامية أن تشترك فى المجهودات التى تبذل فى سبيل هذا الغرض من جانب الأمم التى تدين بغير الاسلام ؟

وليس يكفى فى الاجابة عن هذا السؤال أن أقول ان مقررات الاسلام لن تتنافى مع هذا المبدأ ولا تحول بين الدول الاسلامية والاشتراك فى المجهود الذى يبذل لتحقيق هذا الغرض الانسانى العظيم ، بل أقول فى صراحة وقوة ان مقررات الدين الاسلامى تفرض على الدول الاسلامية الحريصة على حريتها وحرية الشعوب جميعا أن تشترك فى كل مجهود يبذل فى تحقيق هذه الغاية حماية لشعوب الأرض كلها من أن تكتوى بنار الحرب وأن تنزل بها ويلاتها كرة أخرى

الاسلام دين سلام

فالاسلام دين سلام ودعوة للسلام .. والقرآن صريح فى انكار حرب الاعتداء صراحته فى الدعوة الى الجهاد لدفع الاعتداء ..

فان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فالاسلام صريح فى وجوب دعوتهما الى السلم ، فان فاءتا فيها ، والا وجب مقاتلة الطائفة التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت وجب الاصلاح والصلح خير . فاذا أمكن اتقاء الاعتداء قبل وقوعه ، وأمكن تنظيم هذا الاتقاء ، كان واجبا أن تشارك الأمم الاسلامية فيه ، والا تتردد لحظة فى النهوض بنصيبها العدل من أعبائه

ولا يعترض على هذا بأن خطاب القرآن وجه فيه للمؤمنين .. فللمسلمين صلات بسائر الأمم يجب أن تنظم . وقد عقدت معاهدات صلح كثيرة فى العصور المختلفة بين الدول الاسلامية وغيرها من الدول .. وفى بعض هذه المعاهدات ، أقرت بعض الدول الاسلامية امتيازات للأجانب الذين يعيشون فى أرضها ، مبالغة منها فى اظهار محبتها للسلم وحرصها عليه

والواقع أن هذه الحرية الرابعة والتى يراد بها تحرير الناس من الخوف ، هى وحدها التى تكفل طمأنينة الناس فى أرجاء العالم كله الى تلافى الحرب من الثلاث الأخرى السابقة التى تحدثنا عن اتفاقها مع مقررات الاسلام ..

فالاعتداء والتأهب له والخوف منه ، هو وحده الذى يحتج به من يشاء للحد من حرية العقيدة ، ومن حرية الرأى .. وهو الذريعة التى يطالب الناس باسمها أن ينزلوا عن الحد الأدنى لمستوى المعيشة الانسانى . وانما ازدهرت الحرية العقلية والحرية الروحية فى القرن التاسع عشر لأن الناس اطمأنوا الى ما تؤدى اليه سياسة توازن القوى من منع الحرب

وقد تبين أن سياسة التوازن هذه انما تؤجل الحرب ولا تمنعها ، ولذلك أدت الى الحربين العالميتين اللتين أقضتا مضجع الانسانية فى هذا القرن العشرين

ومن يوم نشبت الحرب العالمية الأولى ، بدأت الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية ، فلم يستقر لحرية فى العالم قرار .. ولهذا اتجه الناس فى مختلف الأمم يلتمسون الوسيلة لمنع الحرب واقرار السلام

مع ذلك نشبت الحرب الأخيرة ، فجرت على العالم ما جرت من ويلات ودمار وموت ، وجعلت الناس يعيشون فى جو مكهرب لا قرار فيه لشىء ، ولا يعرف أحد فيه ما كتب له فى غده . وليس مما يسيغ العقل أن يخرج الناس من نكبة ليقعوا فى نكبة شر منها ، الا أن يكون صوابهم قد طاش وهواهم قد ضل .. ولهذا كان التفكير من جديد فى منع الحرب أعظم ما يشغل بال الناس جميعا فى كل الأمم . فاذا لم يكن منع الحرب بتاتا أمرا تطيقه الطبيعة البشرية ، فلا أقل من تأجيلها أجيالا متعاقبة تتقدم أثناءها الانسانية وينضج خلالها ضميرها ، حتى يكون أحفادنا أسعد حالا منا

دعوة الاسلام الى حياة افضل

وهذه الغاية هى بذاتها غاية الاسلام وغاية المصلحين الذين قاموا خلال العصور فى مختلف الأمم ، يدعون الناس الى حياة خيرا من حياتهم والى فضائل خيرا من فضائلهم .. وقد كان الجهد الذى بذل فى هذا السبيل مقصورا فى الماضى على أمة أو طائفة من الأمم ، لأن أسباب الاتصال العالمى

لم تكن ميسورة ، ولأن أجزاء غير قليلة من أرضنا كانت مجهولة لآبائنا وأجدادنا

أما اليوم ، وقد جمعت أسباب الاتصال أجزاء العالم ، ويسرت سبل التفاهم ، فمن حقنا أن يعظم أملنا فى أن يكون الناس أسعد غدا مما كانوا بالأمس ، وأن يكونوا أشد حرصا على استدامة هذه السعادة فلا يسمحون لرجل أو لأمة أن تهددها أو تهدرها بحرب جديدة

وكيف لا يحرص الناس على استدامة سعادة قوامها حرية الرأى والتعبير عنه ، وحرية العقيدة واقامة شعائرها والتحرر من العوز ، والتحرر من الخوف ؟

لقد جاهد العالم منذ مئات السنين وألوفها ليحقق لبنيه شيئا فشيئا هذه الحريات .. وقد بذل من الجهد والدماء فى هذا الجهاد العنيف الطويل ما يسجله تاريخ الانسانية من مبتداه الى وقتنا الحاضر

وقد ثبت فى صحف هذا التاريخ أن كل نكسة كانت تصيب العالم فيما كسب من جهاده ، كانت تؤدى الى أعظم الويل .. وكان الناس يدفعون ثمنها غاليا ، ثم ان هذه النكسات كانت تحدث لأن بعض الشعوب كانت تتمتع بهذه الحريات وكان بعضها لا يجد الوسيلة اليها

أما وقد أقر الناس جميعا فى كل الأمم بما لكل انسان من حق فى أن يتعلم وأن يقدر ما له وما عليه ، فان هذه الحريات الأربع ستسرع الى الانتشار ... وسيؤمن بها كل انسان أينما وجد من أرجاء الأرض ، وسيرى واجبا عليه أن يدافع عنها اذا حدثت معتد نفسه أن يعتدى عليها

فاذا استقر هذا الشعور فى النفوس ، وبلغ منها مبلغ الايمان ، قضى هذا الايمان وحده على فكرة الاعتداء .. وقرب بين بنى الانسان فى أرجاء العالم كله ، فعاش الناس بفضل من الله اخوانا

ألمح فى خاطرى هذا اليوم السعيد ، يبزغ فجره ، ويعم نوره .. ويستمتع أبناؤنا وحفدتنا بنعمته ، فتمتلىء نفسى ابتهاجا وغبطة . ولعل هؤلاء الأبناء والحفدة يحدث بعضهم يومئذ بعضا فيقول أحدهم لأصحابه : « ما أكثر

ما فى العالم من خير يكفى أبناءه جميعا ليعيشوا فى أمن ورغد ، سعداء بعملهم وبثمرات هذا العمل .. فما بال آبائنا كانوا يتناحرون ويقتتلون ، فيقتل بعضهم بعضا ؟ »

ولعل منهم يومئـذ من يقسو فى الحكم علينا ويتهمنا فى منطقتنا وفى رأينا .. ولو أنصفونا لذكروا أن ما ينعمون به من سعادة ، انما هو ثمرة هذا التناحر ، وهذا القتال ، وما ابتلينا به خلال القرون من ألوان الشقاء والبؤس ، ولقال حكيمهم : « ما أشبه ما ناء به آباؤنا من ألم بمخاض الأم حين تضع وليدها ، فاذا أثمر هـذا المخاض وليدا جميلا نما وترعرع .. وسعدت الأم به وبآلامها فى سبيل وضعه ؟.. ويقدر هـذا الحكيم من حفدتنا سعادة أرواحنا يومئذ فى ظل الله .. »

فليثمر ما تنوء به الانسانية ، وما ناءت به خلال الأجيال من آلام ، هذا العالم السعيد يقول فيه أبناؤنا :

« ربنا أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام »

الأماكن المقدسة في الشرق الأوسط

— ١ —

الأماكن الإسلامية المقدسة

* فكرة بناء الاماكن المقدسة
* الكعبة الشريفة بمكة
* المسجد الحرام ومشاعر الحج
* المسجد النبوى بالمدينة
* المسجد الاقصى بالقدس

فكرة الأماكن المقدسة

ألف الناس أن يعتبروا كل بنــاء أتى عليه القدم أثرا من الآثار ، وأن يزوروه بدافع من الطلعة ، استزادة من المعرفة ، وحرصا على أن يروا بأعينهم ما صنع الأســلاف الذين طواهم الدهر فى صحائف القبور منذ مئات السنين أو ألوفها .. فالذين يزورون معابد الفراعنة فى مصر يزورونها توقا الى العلم بحضارة سلفنا ، وبالقواعد التى كانت هذه الحضارة تقوم عليها ، وبالمنشئات التى شادها أهلها . وذلك شأن الذين يزورون الاطلال والآثار القديمة فى كل بلد من البلاد . فأما المسلمون الذين يحجون بيت الله الحرام بمكة ويزورون قبر النبى عليه السـلام بالمدينــة ، فليس حب الاستطلاع هو الذى يدفعهم لزيارة آثار قديمة توالت عليها القرون ، وانما يدفعهم شعور عميق بأنهم يؤدون فرضا فرضــه الله عليهم . وهم يرون الكعبة ، ويرون القبر النبوى ببصرهم وببصيرتهم ، على انهما متطلعين بحياتهم الروحية ، كاتصال منازلهم بحياتهم المادية وبحياتهم الاجتماعية

وذلك شــأن المسيحيين اذ يحجون بيت المقدس . انهم يشعرون حين يدخلون كنيسة القيامة ، وحين يزورون كنيسة المهد ببيت لحم ، بأن فلذة من حياتهم الروحية قائمة فى هــذه الأماكن المقدسة ، وبأنهم اذا بعدوا بأجسامهم عنها فان أرواحهم تظل تهفو اليها

واليهود الذين يزورون المبكى ببيت المقدس ، يخالط قلوبهم شــعور كشعور المسيحيين ، وكشعور المسلمين فى زيارتهم الأماكن المقدسة عندهم

لست أعدو الحق اذن حين أقول ان هــذه الأماكن تبقى على القرون جديدة أمام كل جديد ، لأنها تعتبر فى نظر الذين يحجونها موئلا لأرواحهم ، وملاذا لقلوبهم المتعطشة الى التطهر ترجوه حيثما تكون من بقاع الأرض.. ثم لا تطمئن الى أنها بلغت حظها منه حتى تتم حجها

هذا الالتجاء الروحى الى مكان مقدس أمر جوهرى فى طبيعة الأديان

جميعا ، وهو كذلك بنوع خاص فى طبيعة الأديان السماوية الثلاثة التى نزلت بالشرق الأوسط : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام . صحيح أن نشأة الأماكن المقدسة فى الأديان الثلاثة ، تختلف وتتباين تباينا كبيرا ، لكن الفكرة التى شادت هذه الأماكن واحدة فى الأديان الثلاثة أو تكاد تكون واحدة . وليس عجبا أن يكون ذلك شأنها . وبين هذه الأديان الثلاثة صلة أوثق الصلة .. فقد قام المسيح بين قومه من يهود ، يذكر لهم دينهم فى صفاء جوهره وينذرهم عذاب الله بأنهم حرفوا كلامه الى موسى عن مواضعه منقادين وراء أهوائهم ومطامعهم ، مبتغين من عرض الحياة الدنيا ما يباعد بينهم وبين رحمة الله .. مندفعين بحكم هذه الأهواء والمطامع الى حياة الظلم والاثم ، كما ينذرهم بأن أغنياءهم الذين يظلمون الفقراء لن يتقبل الله منهم .. فدخول الجمل سم الخياط أيسر من دخول الغنى الباغى ملكوت الله ..

والقرآن الذى أنزله الله على محمد عليه السلام ، يجادل النصارى ويجادل اليهود بأن الله بعث لهم رسله بكلمة الحق .. فزاغت عنها أبصارهم وبصائرهم ، وبأنهم حرفوا كلام الله فى التوراة والانجيل عن مواضعه ، وأن النبى العربى انما بعثه الله ليرد الحق الى نصابه ، وليحق الحق ولو كره الكافرون .. وقد بعثه الله مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل

من هذه الصورة السريعة البسيطة لما بين الأديان الثلاثة من صلة ، يتضح أنها ترجع الى أصل واحد ، وتستمد وجودها فى صفائه من ينبوع واحد . وهذا الأصل الأزلى الخالد هو الحق جل شأنه .. تجلى على موسى فكلمه تكليما ونفخ فى مريم من روحه فكان عيسى كلمته الى الناس ، وأوحى الى محمد آياته وكلمته هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان

والينبوع الذى تستمد منه هذه الأديان وجودها فى صفائه ، هو السمو بالروح عن كل عبودية لغير الله .. فالروح من أمر الله ، وملكوت الروح فى السماء لا فى الأرض ، واله الروح واحد هو الله جل شأنه وتعالت أسماؤه . وقيام هذه الأديان الثلاثة تحيط به ظروف متشابهة كل التشابه..

كان الناس فى عهود الرسل الثلاثة يتخذون لأنفسهم أربابا من دون الله ، ثم يتخذون هذه الأرباب الى الله زلفى .. فجاءت الأديان الثلاثة صريحة فى التقرير بأن الله لا اله الا هو الملك الحق ، وان الذين يتخذهم النـاس أربابا من دونه ليس لهم شىء من قـدرته ، لايستطيعون أن يخلقوا ذبابا ضعف الطالب والمطلوب ، وان الناس يجب لذلك أن يقلعوا عن كل عبادة الا عبادة الله ، وعن الأمل الا فى وجهه الأكرم ، وعن الاهتداء الا بنوره الذى أضاءت له السموات والأرض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة

❊❊❊

كان أهـل مصر الفراعنة يصـدقون فرعون اذ يقول لهم : « أنا ربكم الأعلى » فبعث الله موسى الى بنى اسرائيل يصرفهم عن عبادة فرعون الى عبادة الله . وكان أهل فلسطين يذعنون لأرباب روما صاحبة السلطان فيهم ، وكان اليهود منهم يتملقون الحاكم الذى ترسـله روما ويقرون ظلمه .. ابتغاء لرضاه عنهم ، وليمد لهم أسباب السلطان والمال ، فقام المسيح فيهم يدعوهم الى ملكوت السموات ، وينذر الأغنياء عذاب ربهم الأعلى

وكان العرب فى شبه الجزيرة ، يعبدون الأصنام .. فبعث الله محمدا اليهم يدعوهم لعبادة الله وحده ولنبذ الأصنام ، وينذرهم عذاب يوم شديد اذا هم لم يبتغوا وجهه الأكرم ، ملتمسين اليه الوسيلة بالبر والتقوى

ليس عجبا والصلة بين الأديان الثلاثة ما قدمت ، أن تتفق الفكرة التى أدت الى تشييد الأماكن المقدسة أو تكاد تتفق . وهذه الفكرة لا تقف عند تقـديس المكان الذى نزل الدين فيـه ، فأمرها ليس كذلك فى اليهودية بالنسبة لحائط المبكى ولا للصخرة المقدسة . وانما جوهر هـذه الفكرة تعيين المكان الذي يجتمع الناس فيه .. ليتوجهوا بقلوبهم الى الله ، والذى يقبل الله فيه توبة التائب من آثامه .. فنحن وان اتصلت روحنا بارىء النسم جل شأنه ، تغشانا بحكم حيـاتنا الدنيا أهواء وشهوات ، تحجب ضياء الروح ، فلا يهدينا صراط الله المستقيم

وكثيرا ما تدفعنا هذه الشهوات وهذه الأهواء الى ألوان من المعاصى

والآثام ، تباعد بيننا وبين رضا الله عنا ، وحسن مثوبته جل شأنه ايانا ..

حق ان الحسنات يذهبن السيئات ، وانما فى عبادتنا حيث كنا نخفف من أوضار ذنوبنـا . لكن من الذنوب ما يثقل الروح فهى أبدا قلقة تريد أن تخلص منه . ونحن نتوب الى الله ونستغفره فى كل صلاة وفى كل ساعة من ساعات الليل والنهار . وعفو ربى وسع كل شىء . لكن التوبة النصوح .. التوبة التى يتقبلها الله ويمحو ذنوب صاحبها ، هى التوبة التى نسعى اليها ، ونتجشم المشاق فى سبيلها ، ثم نعلنها على ملأ العالم من بنى ديننا . وهذه التوبة هى التى تتم فى اعلان صريح فى المكان المقـدس الذى اختاره الله لنا ، كى يكون بعضنا شـهيدا على بعض ، ولكى لاتلهينا العاجلة ، فلا نكاد نعلن التوبة الى الله حتى نتورط فى حياة الاثم من جديد

هـذه هى الفكرة الجوهرية القائمة بنفس كل مسلم ، وكل مسيحى ، وكل يهودى ، يعتزم الحج الى المكان المقدس الذى اختاره الله لأهل دينه وملته .. ففى سبيل طهر القلب ، ونقاء الروح مما يعلق بالنفس من أوضار الاثم ، نذر وراء ظهورنا تلك البيئة التى أغرتنا وغرتنا ، ولعبت بأهوائنا ، وعبثت بقلوبنا الى بيئة طهور تتجلى فيها أرواحنا ، وترتفع الى غاية ما تستطيع أن تسـمو اليه من عوالمها المضيئـة .. فتصهر بحرارة ايمانها ، وبحرارة توبتها ، ما علق بها أو تصبره على ملأ بنى الدنيا لأن الدنيا مهد الخطيئة ، فليس منا من يستطيع أن يدعى انه لم يأثم .. بل كلنا تصـدق فينا كلمة السيد المسيح فى مريم المجدلية : « من كان منكم بلا خطيـئة فليرمها بحجر »

فكرة التوجه الى الله بالتـوبة وطلب المغفرة ،هى التى أبقت الأماكن المقدسة جديدة أمام كل جديد ، وهى التى أنشـأت تلك الأماكن أول أمرها . وهى الأساس لنشأة أقدم هذه الأماكن وأكثرها قدسية .. فمنـذ فجر الاسلام كان الطواف بالكعبة يجمع كل معانى التوجه لله ، من شكر الى رجاء الى توبة واستغفار

وكان الطواف بالكعبة يجمع هذه المعانى قبـل الاسـلام .. فالعربى

الجاهلي الذي كان يطوف بالكعبة قبل أن يخرج الى عمل يرجو منه الخير، والذي كان يضرب بالقداح عند هبل القائم فى جوف الكعبة قبل أن يوفقه رب البيت الى ما يبغي ونحن لا نزال اذ نطوف اليوم بالبيت العتيــق ، يحدونا الرجاء أن يحط الله عنا أوزارنا ، وأن يوفقنا فى حياتنا الى ما نحب ونرضى والى ما يحب ويرضى .. ذلك شأننا جميعا حين نحج وان اختلف كل حاج فى تصور الحياة وتصور معانى الرجاء والشكر والتوبة

الفكرة التى شــادت الأماكن المقدسة وأبقتها جــديدة أمام كل جيل جديد ، هى اذن فكرة التوجه لله ابتغاء رضاه ، والأمل فى بلوغ الكمال الذى يقربنا من الله ، ثم قصــورنا دون هذا الكمال ، وقربنا فى كثير من الأحيان من نقيضه ، ورجاؤنا فى الله بعد ذلك أن يغفر لنا ما قصرنا وما أثمنا . وهذا الاضطراب بين الكمال ونقيضه ، يتعرض له الناس جميعا على اختلاف أقدارهم واختلاف علمهم ..

فهــذا العاهل العظيم الذى ملك الأرضين ودوخ الشعوب ، وبلغ من ذلك ما بهر القلوب وشد اليه الأنظار ، يرجع الى نفسه ساعات فيشعر بأن ما يراه هو ويراه الناس العظمــة كل العظمة .. ليس شيئا الى جانب ما ارتكب فى سبيله من أوزار، وانه لذلك أحوج الى رضا الله عنه ولطفه به ، حتى لقد يود لو انه لم يكن عاهلا عظيما ، ولم يرتكب كل ما ارتكب من الخطايا

هنالك تضــعف نفسه ويستشعر النــدم ، ويريد أن يتقدم الى بارئه بالتــوبة ، فيسعى الى المكان المقدس الذى يتوب النــاس عنده حاجا مستغفرا مما اجترح فى سبيل العظمة التى طالما أغرته وضلته . وهذا الفقير الذى يكد ليله ونهاره لقوته وقوت عياله ، يشعر بأنه لم يكن دائما طاهر النفس فى سعيه وفى كده ، وانه طالما تمني لجاره ما لايتمناه لمن يحب ، وانه فى سبيل الحياة قد أثم وأذنب ، وانه لذلك فى حاجة الى التوبة تطهره ليعود الى ربه نقى الروح ، جديرا بملكوت الله ..

وبين هــذين ــ بين العاهل العظيم والفقــير الذى يكد ويسعى لقوته

وقوت أهله ــ تضطرب طبقات الانسانية المختلفة بين القوة والضعف ، وبين اليــأس والرجاء ، وبين الأمل الخادع والخيبــة اللاذعة . وهى فى اضطرابها يعبث بها الغرور تارة ، ويعبث بها الضعف أخرى .. فاذا عبث بها الغرور أثمت ، واذا عبث بها الضعف أثمت ، وعند ذلك تشعر بالحاجة الى التوجه الى الله منيبة تائبة من آثام الغرور ومن آثام الضعف جميعا .. ثم لا تجد ملاذا لطهر الروح المتعطشة الى الطهر الا بالحج الى الأماكن المقدسة .. تعلن عندها التوبة ، وتغسل فى ظلالها الوزر والحوبة

من ثم ، كان شعور الحجاج اذ يبلغون هــذه الأماكن المقدسة قويا ، فياضا بمعان روحية لا سبيل الى تصورها فى غير هذه الأماكن . وسنرى صورا من ذلك حين الحديث عن كل واحد منها

الكعبة الشريفة

الاسلام أحدث الأديان السماوية الثلاثة التى نزلت فى الشرق الأوسط . وقد جاء النبى العربى مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل . ومع ذلك فبيت الله الحرام بمكة أقدم الأماكن المقدسة بهذا الشرق الأوسط . والسر فى ذلك ان الأماكن المقدسة لليهود وللنصارى ، لم تخلع عليها آى القداسة الا بعد أن نزلت اليهودية وبعد أن نزلت المسيحية. أما الكعبة التى يعظمها المسلمون اليوم ، فكانت مقدسة قبل بعث محمد بأجيال طويلة . وكان العرب يحجون اليها أيام الوثنية والأصنام ، حتى منع الاسلام غير المسلمين من حج البيت

وقد ذكر القرآن قدمها فى قوله تعالى : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم . ومن دخله كان آمنا » وقال تعالى : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا . واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى . وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » الى قوله جل من قائل : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم »

هذه الآيات ترجع بناء البيت الحرام الى ابراهيم واسماعيل .. وابراهيم هو جد الأنبياء عليهم السلام ، يسبق فى التاريخ موسى وعيسى . لا عجب اذن ، أن يكون بيت الله الحرام بمكة أقدم الأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط

قصة البناء

وقصة بناء ابراهيم واسماعيل البيت ، قصة رواها المؤرخون على وتيرة تكاد تكون واحدة . والمأثور أن ابراهيم طعن على قومه لعبادتهم الأصنام

فاضطهدوه .. ففر الى فلسطين ومعه زوجه سارة . ومن فلسطين سافر الى مصر وتزوج فيها جاريته هاجر .. وولدت له هاجر اسماعيل ، ثم ولدت له سارة اسحق

لم تطق سارة المقام مع هاجر فسافر ابراهيم بها حتى بلغ الوادى الذى تقوم به مكة اليوم ، وهناك تركهما وترك معهما ما يقتاتان منه . أفكان فى هذا المكان ماء ، وكان على الماء خيام لبدو يقيمون عنده . هذا أمر اختلف فيه .. تجرى احدى الروايات بأن قبائل جرهم كانت تقيم على ماء فى هذا المكان . وتجرى رواية أخرى بأن ابراهيم ترك هاجر واسماعيل وحدهما وعاد أدراجه ، وان الماء نفد بعد أيام من هاجر.. فجعلت تسعى بين ربوتين هما الصفا والمروة . فلما سعت سبعا ، تطلعت الى ناحية ولدها اسماعيل ، فألفته قد فحص الأرض برجليه ، فنجم الماء من بئر هو زمزم . واستقت هاجر وسقت ولدها ، وحجزت الماء دون السيل ، فجاءت جرهم فأقامت مع الأم وابنها على الماء

ولما شب اسماعيل ، تزوج فتاة من جرهم بنت مقضاض بن عمر . وقد ذهب ابراهيم لزيارة اسماعيل وأمه أثناء مقامهما بهذا الوادى ، مرة قبل هذا الزواج ومرة بعده . والروايات تجرى بأن بناء الكعبة حدث فى احدى هاتين الزيارتين . وان اختلفت على كيفية حدوثه

ذهبت رواية الى أن جبريل أمر ابراهيـــم فركب البراق مع هاجر ومع اسماعيل ، وطــاروا يريدون مكان بيت الله لبنائه ، حتى اذا نزلوا مكة تعاون الأب والابن على اقامة البيت . وفى رواية أخرى ، أن ابراهيم جاء الى مكة بعد أن شب اسماعيل وتزوج . ووجده أبوه يبرى نبالا تحت دوحة قريبة من زمزم ، فتبادل التحية معه .. ثم قال له : « يا اسماعيل ان الله أمرنى بأمر ، أن أبنى هنا بيتا » وأشار الى أكمة مرتفعة عما حولها .. وتعاون الرجلان على البناء ، اسماعيل يجىء بالأحجار ، وابراهيم يبنيها ، حتى ارتفع البناء الى قرابة قامة الرجل .. فجىء بالحجر الأســود ووضع مكانه ، ثم تعاون الرجلان حتى تم البناء ..

والروايات فى الحجر الأسود وأصله تختلف .. قيل : جاء به جبريل من السماء ، اذ كان قد رفع اليها حين أغرق الطوفان . وقيل : جاء به جبريل من الهند حيث هبط به آدم من الجنة ، وكان أبيض ناصعا فاسـود من خطايا الناس . وقيل : بل كان فى جبـل قبيس منذ طوفان نوح ، وكان مضيئا يكاد يذهب سنا ضوئه بالأبصار .. وانما سودته أنجاس الجاهلية وأرجاسها.

وهذه الروايات على اختلافها ، تذهب الى أن البيت العتيق كان ارتفاعه ، حين أقام ابراهيم واسماعيل قواعده ، تسعة أذرع .. وانه كان مستطيلا عشرين ذراعا فى ثلاثين ، وانه كان له بابان ملاصقان للأرض ، وانه لم يكن عليه سقف وانما حفر به بئر يكون خزانة له.

***

هذا هو المتواتر فى أمر بيت الله الحرام ، واقامته أول ما أقيم .. على أن طائفة من غلاة المعتقدين لايرضون أن تكون هـذه النشـأة نشـأته ، ويحرصون على أن يردوا أمره الى ما قبل خلق الانسان أو الى أول خلقه . ذكر بعضهم أن الملائكة هم الذين بنوا البيت .. ذلك ان الله غضب عليهم حين قال لهم : « انى جاعل فى الأرض خليفة » قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »

وأحس الملائكة غضب الله عليهم ، فلاذوا بالعرش يتضرعون ويبكون اشفاقا من هذا الغضب ، ثم طافوا بعرش الله سبعا كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك .. ربنا معذرة اليك .. نستغفرك ونتوب اليك ، فأنزل الله الرحمـة عليهم ، ووضـع تحت العرش بيتا هو البيت المعمور ، وقال للملائكة : « طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش » ثم أمر الله الملائكة من سكان الأرض أن يبنوا فى الأرض بيتا على مثال البيت المعمور ، وأمر من فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور . وتجرى هذه الرواية بأن الملائكة بنوا هـذا البيت الذى يقوم

بيت الله الحرام اليوم مكانه قبل خلق آدم بألفى عام

أما رواية آدم وبنائه البيت الحرام ، فتذكر أن آدم سأل ربه بعد أن هبط وزوجه من الجنة : « يارب ما لى لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم » وأجابه ربه : « بخطيئتك يا آدم .. ولكن اذهب فابن لى بيتا فطف به ، واذكرنى حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى » فأقبل آدم يتخطى الأرض حتى بلغ مكة فبنى البيت الحرام .. وقيل : كان هو يبنى وحواء تنقل له الحجارة

وفى رواية ان شيثا بنى الكعبة بعد آدم ، ثم جاء الطوفان فى عهد نوح فأغرق الأرض وما عليها وأغرق بناء الكعبة ، ثم بوأ الله لابراهيم مكان البيت ، فأقام قواعده مع اسماعيل

وليس فى وسع مؤرخ أن يثبت شيئا ــ على سبيل القطع ــ عن الروايات التى وردت عن بناء الملائكة أو بناء آدم أو شيث الكعبة

وظلت الكعبة على بناء ابراهيم واسماعيل زمنا لم يحدده مؤرخ .. قيل : بناها العمالقة وجرهم بعد ذلك .. وقيل : بقيت كما بناها ابراهيم واسماعيل الى أن جدد بناءها قصى بن كلاب الجد الخامس للنبى العربى . وتذهب الرواية التى تذكر بناء قصى الكعبة الى انه خالف ما كان متبعا من ترك البيت قائما فى الفلاة لا يبنى حوله أحد اعظاما لحرمته ، وأمر الناس فبنوا حول البيت ولم يتركوا الا قدر المطاف

خلاف حول الحجر المقدس

وأقام العرب يحجون الكعبة كما بناها قصى ، الى أن ولد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، والى أن بلغ الخامسة والثلاثين من عمره . وفيما أهل مكة يتمتعون بحياتهم العادية ، اذا سيل عظيم انحدر من الجبال وطغى على مكة ، وأصاب الكعبة فوهنها وصدع جدرانها .. وفكرت قريش فيما تصنع بها . وبعد تردد ، هدم القوم البيت الحرام حتى جداره . ونقلت قريش الأحجار من الجبال المجاورة وبدأت البناء . فلما

ارتفع الى قامة الرجل ، وآن أن يوضـــع الحجر الأســـود المقدس مكانه اختلفت القبائل أيها يكون لها فخار وضعه فى هذا المكان . وكادت الحرب الأهلية تنشب بسبب هذا الخلاف ، لولا أن قال أمية بن المغيرة المخزونى للقوم ــ وكان فيهم شريفا مطاعا ــ اجعلوا الحكم بينكم أول داخل من باب الصفا

وكان محمد بن عبد الله ، أول من دخل .. فلما قص عليه القوم قصتهم ، قال : « هلم الىّ ثوبا » ونشر الثوب ، وأخذ الحجر بيده فوضعه فيه ، ثم قال : « ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطرافه هذا الثوب » وحملوه جميعا حتى اذا حاذى موضع الحجر من البنـــاء ، تناوله محمد ووضعه فى موضعه .. وبذلك انحسم الخلاف ، وأتمت قريش بناء الكعبة ورفعت بابها عن الأرض ، وسقفتها ووضعت هبل فى داخلهـــا ، ووضعت معه النفائس التى أهديت من قبل لها ، والتى طالما تعرضت قبل سقفها ، لمطامع اللصوص

اعادة بناء الكعبة

وظل بناء الكعبة هذا قائما ، حتى آل الأمر الى يزيد بن معاوية ، وكانت عاصمته دمشق . وكان عبد الله بن الزبير لايزال بمكة ثائرا بالأمويين . وجرد يزيد جيشا سار الى مكة ، وحاصر ابن الزبير بها ، ونصب المنجنيق على جبال مكة ورمى الكعبة بعشرة آلاف حجر ، وهنت البناء وجعلته عرضة للحريق لما كان يخالط أحجاره من خشب الساج . عند ذلك استشار بن الزبير الناس ما يصنع بالبيت ، وانتهى الأمر الى هدم الكعبة واعادة بنائها

وفى أثناء البناء نصب حول الكعبة سياج من خشب وجعلت عليه ستور حتى يطوف الناس بمكان البيت ويصلوا اليه

وبعد عشر سنوات ، حاصر الحجاج ابن الزبير وقتـــله ، ثم غير أحـــد جدران الكعبة ، وســـد الباب الغربى ، ورفع البناء الى ما كان عليه فى الجاهلية .. فلما تولى هارون الرشيد ، سأل الامام مالكا فى هدم الكعبة وردها الى بناء ابن الزبير ، فكان جواب مالك : « يا أمير المؤمنين لا تجعل

كعبة الله ملعبة للملوك ، لايشاء أحد أن يهدمها الا هدمها » وترك الرشيد البيت ، لم يتعرض له

بقيت الكعبة على بناء ابن الزبير وتعديل الحجاج اياه ، لايزيد المسلمون على أن يقسوا ما يعتسريه الوهن منهـا ، حتى كانت سـنة ١٠٤٠ هـ (١٦٣٠ م) ، اذ هطل بمكة مطر هتون فدخل المسجد وارتفع حتى دخل الكعبة . وكان بناؤها قد وهن بعد أن انقضى عليه قرابة ألف عام . لذلك سقطت جدرانها واحدا بعد الآخر ، وترامى ما أصاب البيت الحرام الى الأقطار الاسلامية ، فانزعج الناس فيها ، كما انزعج أهل مكة فأجمع الكل على المبادرة الى عمارتها

وأحيط البيت بسياج من الخشب يطوف به الناس ويصلون اليه ، كما كان الأمر على عهد ابن الزبير . وأنفق القوم فى البناء ستة أشهر وأموالا طائلة . ولم يعيدوا من الأحجار التى بُنى بها ابن الزبير الكعبة الا ما وجدوه صلبا قويا .. أما ما وهن ، فاستبدلوا به غيره

على أن مشكلة خطيرة واجهتهم .. فقد بدأ الحجر الأسود يتناثر الفتات منه . وللحجر الأسود من القدسية حظ ، جعل المعماريين يلجأون الى كل أساليب الفن ليعيدوا الى أجزائه صلابتها .. ولما تم لهم ما أرادوا ، ربطوه باطار الفضة الذى ربط به على عهد ابن الزبير ووضعوه مكانه

وبناء الكعبة هذا ، هو القائم الى يومنا الحاضر .. وهو الذى يطوف المسلمون به منذ فرض الله الحج عليهم الى الآن ..

المسجد الحرام ومشاعر الحج

قلنا أن الكعبة أقدم الأماكن المقدسة ، وانها أول بيت وضع للناس .. فقد كان العرب فى الجاهلية يحجونها على اختلاف نحلهم ، ويعتبرونها المكان الذى يقبل فيه التوجه الى الله ، وتقبل فيه توبة التائب..كان لبعض قبائل العرب أماكن كالكعبة تعظمها وتحج اليها ، وكان لكل قبيلة صنم تتخذه الى الله زلفى ، لكنها كانت جميعا تقدر أن الحج المقبول عند الله هو الحج الى بيته بمكة . فاذا اكتفى رجل القبيلة بالتعبد لصنمه ، أو بحج البيت القائم بالطائف ان كان من ثقيف مثلا ، لم يكن قد أدى ما عليه من فرائض العبادة أداء كاملا ، ولا بد له من زيارة البيت العتيق ليتم حجه وتقبل توبته

ولما تغلبت الحبشة على اليمن ، وحكمها أبرهة ، ظن أنه يستطيع أن يصرف أهل اليمن عن بيت مكة .. اذا هو أقام لهم بصنعاء بيتا يحجونه ويولون وجوههم شطره . وأقام بصنعاء بيتا له من الجمال ، ومن دقة الفن ، ما لم يكن لبيت مكة الذى تنزه ببساطته عن مجالى الفن .. فلم ينصرف أهل اليمن مع ذلك الى بيت أبرهة عن البيت العتيق ، بل ظلوا مؤمنين بأن هذا البيت القائم بمكة هو وحده الذى يقبل فيه التوبة الى الله ، وتقبل فيه توبة التائب

وكانت الأشهر التى تعارف عليهـا العرب قبل الاسلام على حج البيت فيها حرما ، لا يحل فيها قتل ولا قتال .. فاذا برز الناس للحج من أنحاء شبه الجزيرة ، وتخطوا أعلام الحرم ، لم يجز لأحد أن يقتل أو يقاتل ، ووجب على الجميع أن يلوذوا بأهداب السلام ، وأن يقفوا من مناوآتهم ومناوشاتهم عند الفخر والتفاخر على نحو ما كان يقع بعكاظ وبغيرها من أسواق العرب .. فاذا حدثت أحدا نفسه بالجريمة فى الأشهر الحرم فهو آثم قلبه

لذلك وجد النبى عليه السـلام فرصة الدعوة الى دين الله فى هـذه الأشهر الحرم ، حين قاطعته قريش وألزمته وأصحابه بمكة شعبا من شعاب الجبل ثلاث سنوات متوالية .. فى هـذه الفترة الدقيقة من حيـاة الدين الناشىء ، كان الرسول يخرج الى الناس فى الأشهر الحرم ، آمنا عدوان خصومه عليه ، وكان يعرض نفسه على القبائل يدعوها الى دين الله ، مطمئنا الى انه فى حمى بيت الله

وكان المسلمون قبـل الهجرة ، يعظمون البيت كما يعظمـه غيرهم من سائر العرب . ومن يوم أسلم عمر بن الخطـاب ، لم يرض عن استخفاء المسلمين وذهابهم الى شعاب مكة ، يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش .. بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه . فلما هاجر رسول الله ، والمسلمون معه ، الى المدينة .. بقى حنينهم الى بيت الله بمكة يستحثهم الى زيارته . وظل ذلك دأبهم حتى ذهبوا عام الحديبية لحج البيت . فلما صدتهم قريش ذلك العام ذهبوا العام الذى بعده .. وفتح الله مكة بعد ذلك لدينه ولنبيه ، فأصبح للمسلمين من الحرية فى حج البيت ما لغيرهم . وظل ذلك شأنهم الى أن كان العام الذى سبق وفاة الرسول ، والذى حرم بعده على غير المسلمين أن يطوفوا بالبيت العتيق

قبل الاسلام وبعده

وانما اختلف أمر الكعبة فى الاسلام عنه فى الجاهلية بعد فتح مكة ، لأنها كانت فى الجاهلية موئل الأصنام .. وكانت تهدى اليها نفائس تحفظ فى داخلها . وكانت بعض الأصنام قطعا من الفن .. كان هبل مصنوعا من العقيق على صورة الانسان ، فلما كسر ذراعه أبدله القرشيون منه ذراعا من ذهب . وكانت بئر زمزم مطموسة ثلاثة قرون فى الجاهلية ، فأعاد عبد المطلب جد النبى حفرها .. فأخرج منها غزالتين من الذهب كانتا مخبوءتين فيها . وكانت الملائكة مصورة على جدران الكعبة فى صورة النساء ، وكان

لابراهيم صورة يستقسم فيها بالازلام . فلما فتح النبى مكة عفى على هذا كله ، وطهر الكعبة من كل صنم وصورة ، وأبقاها فى بساطتها مثابة للناس وأمنا.

وللمسجد الحرام قدسية تتصــل بقدسية الكعبة .. وهو اليوم فسيح ببضعة آلاف من الأمتــار ، يتجاور فى صحنه الرخام والحصباء ، ويمتد النظر فى كل ناحية منه حتى تقفه عمد بينها وبين جدرانه بضعة أمتــار ، وتقوم فوق العمد والجدران قباب تحمى من بالمسجد من الشمس والمطر . وهو لم يبلغ سعته هذه فى عهد النبى ولا فى عهد أبى بكر ، ولم يزد عمر وعثمان فى مطاف الكعبة الا قليلا ، ولم يرفعا حوله بناء كالذى نراه اليوم. وانما أحيط المطاف فى عهدهما بجدار قصير وكان غير مسقوف

وفى المطاف كان المسلمون يقيمون الصلاة ، فلما اتخذ الأمويون دمشق عاصمتهم ، ورأوا عناية النصارى بكنائسهم وعمارتها وزينتها .. رأوا أن يجعلوا للمسجد الحرام مثل هذه العناية . وكان عبد الملك بن مروان أول من أمر فى ســنة خمس وسبعين للهجرة ، فرفعت جدر المسجد وســقف بخشب الساج الداكن المتين . وزاد الوليد بن عبد الملك فى عمل أبيــه ، فوسع المسجد وزخرف السقف ، وأزر أسفل جدرانه بالرخام ، وجعل له شرفا.

وجاء العباسيون ، فزادوا فى رقعة المسجد الى ضــعف ما كان عليه ، وزينوه بالذهب وأنواع النقوش ، وكانت الكعبة فى جانب من المسجد ، فأمر المهدى أن تكون فى وســطه . ونفذ المهندسون أمره مع الاحتيــاط للسيول حتى لا تطغى على البيت الحرام . وظل المسجد بعد ذلك ، موضع العناية من جانب الأمم الاسلامية فى مختلف العصور الى وقتنا الحاضر

أماكن لها حرمة

الكعبة هى أول ما يأخذ بنظر من يدخل المسجد بطبيعة الحال .. هى بيت الله الحرام ، من دخله كان آمنا .. وهى قبلة المسلمين فى أقطار الأرض

جميعا .. لكن بالمسجد فيما حول الكعبة ، أماكن لها عند المسلمين حرمة خاصة . هذه الأماكن هى : مقام ابراهيم ، وحجر اسماعيل ، وبئر زمزم ، والتاريخ لا يحدثنا عن الصورة التى كان عليها مقام ابراهيم أو حجر اسماعيل فى الماضى .. بل لعل بعض المؤرخين يجدون عسرا فى اثبات المكان الذى يقوم فيه المقام أو الحجر حين كانت الكعبة قائمة ليس حولها الا المطاف .. على أن حرمة المقام والحجر والبئر ، ترجع الى اعتبارات تاريخية والى نصوص فى القرآن ، تدنى هذه الحرمة من القدسية ، وان لم تدن بها من قدسية البيت الحرام

وهذه الحرمة تدعو المسلمين للقيام فى هذه الأماكن بالصلاة اجلالا لها .. ولا عجب أن يصنعوا ، وقد ورد فى القرآن عن مقام ابراهيم قوله تعالى : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا . واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ». أما حجر اسماعيل فيذكرون أنه كان يقع داخل رقعة الكعبة ، كما أقام ابراهيم واسماعيل قواعدها ، ولذلك كان أجر الصلاة فيه كأجر الصلاة داخل بيت الله

ومقام ابراهيم يقابل باب الكعبة ويقابل الحجر الأسود . وهو يقع فى جوار باب أقيمت عمده وأقيم عقده من الرخام . ولما كانت الروايات لا تثبت للمصلين فيه أجرا ، كأجر المصلين فى حجر اسماعيل ، كان الذين يطيلون المقام عنده قليلين

أما حجر اسماعيل ، فيتصل بالكعبة ويقع فى الناحية المقابلة للجدار الممتد بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، ويحيط به سور فى نصف دائرة من الرخام يرتفع الى ما دون قامة الرجل العادى . والمصلون فيه أيام الحج يزحم بعضهم بعضا حتى لا يكاد الانسان يجد به مكانا الا أن ينتظر حتى يخلى له غيره مكانه

يقابل بئر زمزم حجر اسماعيل الى الناحية الأخرى من بناء الكعبة . وقد أقيم فوق البئر حديثا بناء يستره ، أريد به منع مياهه من التلوث . وهذا البناء فخم يدخل الانسان اليه اذا وجد الوسيلة الى الدخول ، فيراه

فسيح الأركان .. ويرى فيه الموكلين باخراج الماء من البئر ليشرب منه من يطلبون البركة . فأما الذين يتاح لهم دخول البناء والوصول الى البئر ، فيتوضأون من ماء زمزم ، ويتضاعف بذلك حظهم من البركة

أبواب المسجد

وللمسجد الحرام فيما يقابل البئر والحجر والمقام أبواب عدة ، لعل باب علي أكثرها جمالا من الناحية الفنية .. على أن باب الصفا هو الذي ينتقل منه الانسان الى شعيرة من شعائر الحج والعمرة بعد الطواف .. فالطواف بالكعبة أول ما يجب على من يدخل مكة أن يقوم به . فاذا أتمه ، فعليه أن يسعى بين الصفا والمروة استجابة لقوله تعالى : « ان الصفا والمروة من شعائر الله . فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما ، ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم »

والصفا والمروة كانتا ربوتين قائمتين في الفلاة تظلهما السماء ويمتد بينهما المسعى . فلما بنى الناس حول الكعبة اعتدوا على أجزاء من المسعى حتى لم يعد اليوم مستقيما ، وحتى طغت الحوانيت والجدران والطرق القائمة حوله على بعض أجزائه

هذه الأماكن التي أشرت اليها هي أماكن الحج الاسلامي المقدسة داخل مكة ، وهي تتصل ببيت الله الحرام .. وقدسيتها تفرض لها شعائر خاصة من العبادة تقررت أصولها منذ عهد النبي عليه السلام ، ثم نظمت تفاصيلها على الأجيال أدق نظام

الأماكن المقدسة خارج مكة

أما أماكن الحج الاسلامي المقدسة خارج مكة ، فأولها عرفات .. وقدسية عرفات لا تتجلى الا يومي الحج ، وهما اليومان الثامن والتاسع من شهر ذي الحجة لكل عام . وعرفة أو عرفات جبل ، يبعد عن مكة عشرين كيلومترا أو نحوها ، سطحه بطحاء فسيحة تتسع لعشرات الألوف من الناس .. فاذا كان اليوم الثامن من ذي الحجة ، صعد الحجاج من مكة الى عرفات زمرا ، فألفوا خيامهم ضربت بها وأعدت لقضاء الليل فيها .

فاذا أصبح الصبح من يوم عرفة ، رأيت هذا البطيح ممتدا أمامك لا يكاد يحيط بحدوده نظرك ، ورأيت الناس فيه جميعا لبسوا لباس الاحرام فهم سواسية ، ورأيتهم يتوجهون بقلوبهم وأفئدتهم الى الله يلتمسون التوبة والمغفرة .. فأنت تسمع استغفارهم منذ صلاة الفجر لذلك اليوم الى أن يفيض الناس من عرفات بعد صلاة العشاء فوق الجبل .. فاذا أفاض الناس من عرفات عاد خلاء كما كان لا يعمره الا من يمرون به من البدو ، ثم يبقى كذلك الى أن يستدير العام وتعود أيام الحج فى العام التالى

ويفيض الناس من عرفات الى المشعر الحرام بالمزدلفة ، يأخذون منه الجمرات الى منى . والمشعر الحرام مسجد قائم فى عزلة الصحراء بين هذه الجبال القليلة الارتفاع ، والتى تتصل من مكة الى عرفات . وقل أن يرى أحد من الحجاج مسجد المشعر الحرام لأنهم يمرون به بعد الافاضة ليلا ، ولا يقيمون عنده الا سويعات تطول أو تقصر حسب ساعات الافاضة . فمن أفاض بعد العشاء ، أتيح له أن يبقى زمنا الى ما بعد منتصف الليل . ومن أفاض من عرفات قبيل منتصف الليل ، لم يقف بالمشعر الا ريثما يتم جمع الجمرات

ويبلغ الحجاج منى قبيل الفجر ، ثم يقضون بها ثلاثة أيام يرمون فيها الجمار ويصلون بمسجد الخيف .. على أن الناس يهبطون من منى أول أيام عيد الأضحى ليطوفوا بالبيت ، ومنهم المحرم ومنهم من حل احرامه . فاذا أتموا الطواف والسعى ، عادوا الى منى فقضوا بها أيام عيد الأضحى ، ثم رجعوا الى مكة ينظمون سفرهم منها الى المدينة أو عودتهم الى بلادهم

هذه هى الأماكن المقدسة التى تتصل بالحج عند المسلمين .. وهذه الصورة السريعة التى عرضتها عليك تدلك على أن ما كان خارج مكة من هذه الأماكن لا تتجلى حرمته الا فى أيام الحج . فأما ما خلا ذلك من أيام السنة ، فهو خلاء لا يشهده ولا يمر به الا المقيمون حوله .. أما بيت الله الحرام ، وأما المسجد الحرام ، فتظل شعائرهما متصلة طول العام .. وعلى كل من دخل مكة أن يطوف بالبيت وأن يسعى بين الصفا والمروة

والمكان المقدس عند المسلمين بعد بيت الله ، هو القبر النبوى بالمدينة

المسجد النبوى

قلّ من المسلمين من حج بيت الله الحرام بمكة ، ولم يزر الحجرة النبوية بالمدينة . وكثيرا ما كان الناس فى بعض الأزمان يكتفون بزيارة القبر النبوى فى موسم رجب ، وكان ذلك واضحا بنوع خاص أيام كانت سكة الحديد الحجازية ممتدة بين الشام ومدينة الرسول . والحق أن قدسية المسجد النبوى والحجرة النبوية ، لا تقل فى نظر الأكثرين عن قدسية المسجد والبيت الحرام بمكة .. وان لم يفرض الاسلام لمسجد المدينة شعائر خاصة به

والمسجد النبوى بالمدينة ، يحتوى على الحجرة النبوية حيث دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحيث دفن الخليفتان الأولان أبو بكر ، وعمر . ومن هنا ، ازدادت قدسيته وازداد اقبال الناس على زيارته . على أن لمسجد المدينة مكانة خاصة ، لأن رسول الله هو الذى أقامه فى صورته الأولى .. فهو لذلك مسجد أقيم خالصا للمسلمين

فقد دخل رسول الله المدينة بعد هجرته من مكة ، وليس له فيها مكان يقيم به .. فلما بركت الناقة التى كان يمتطيها عند مربد يجفف فيه التمر لغلامين يتيمين من بنى النجار ، سأل عليه السلام لمن المربد . وأجابه معاذ ابن عفراء أنه لسهل وسهيل ابنى عمر ، وهما يتيمان له وسيرضيهما ، ورجا رسول الله أن يتخذه مسجدا ، وقبل النبى أن يبنى فى هذا المكان مسجده وأن يبنى داره

وأمر رسول الله ، فقطع ما بالمربد من نخل وغرقه ، وسوى ما كان به من قبور الجاهلية ، وجفف ما كان به من الماء ، ثم بدأ البناءون يبنون المسجد والرسول معهم ينقل اللبن . واذ كان البناء بسيطا ، جدره من اللبن وسقفه من الجريد وعمده من خشب النخل ، فسرعان ما تم

وبنى بيت رسول الله بجوار المسجد .. والى أن تم بناؤه ، كان رسول

الله يقيم بدار أبى أيوب الأنصارى

وكانت مساحة المسجد ، حين أتم النبى بناءه لأول مرة ، لا تزيد على خمسة وثلاثين مترا فى ثلاثين . وكان بحجمه هذا ، كافيا لصلاة المسلمين الأولين بالمدينة من المهاجرين والأنصار . فلما أجلى النبى اليهود عن المدينة وأجلاهم عن خيبر ، وخلصت المدينة بذلك للمسلمين ، لم يكن بد من أن يزيد النبى فى رقعة المسجد ، فجعله خمسين مترا فى خمسين . وكانت قبلة المسجد يومئذ من جذوع النخل ، وقد بقيت متجهة الى ناحيـة المسجد الأقصى حتى عدل بالقبلة الى ناحية الكعبة

ولم يتخذ رسول الله لنفسه منبرا أول ما بنى المسجد ، بل كان يخطب الناس مستندا الى جذع نخلة كانت عمادا من عمـد المسجد .. فلما شعر أصحابه أن القيام شق عليه ، صنعوا له منبرا من الخشب درجتين ومجلسا

توسيع المسجد

وانقضت خـلافة أبى بكر والمسجد كما كان على عهـد النبى .. فلما أطردت زيادة المسلمين ، رأى عمر أن لابد من الزيادة فى المسجد .. فزاد فيه خمسة أمتار من الناحية الجنوبية ، ونقل القبلة اليها ، ونحو ذلك من الناحية الغربية وخمسة عشر مترا من الناحية الشمالية . ولم يزد شيئا من الناحية الشرقية ، اذ كانت بيوت أزواج رسول الله أمهات المؤمنين . ولم تكن زيادة عمر المسجد الا زيادة فى رقعته .. أما فن البناء فبقى كما كان على عهد رسول الله ، لأن العرب الى ذلك العهد كانوا يقصدون بالعمارة سد الحاجة الماسة على أبسط صورة

وازداد سكان المدينة بازدياد رقعة الفتح الاسلامى ، فشكا الناس الى عثمان ضيق المسجد يوم الجمعة . وشاور عثمان أهل الرأى من الصحابة ، فأجمعوا على أن يهدم ويزاد فيه . وهدم عثمان المسجد وزاد فيه بقـدر زيادة عمر ، ثم أحدث من التطور فى عمـارته أن بنى جـدره بالحجارة المنقوشة ، وجعل عمده من حجارة منقورة .. أدخل فيهـا عمد الحديد ،

وصب فيها الرصاص ونقشها من خارجها ، وجعل السقف من خشب الساج

الوليد يعيد بناء المسجد

وبقى المسجد على بنـاء عثمان حتى استقر الأمر للوليد بن عبد الملك الأموى ، ولم تبق للثائرين بالحجاز قوة . وقدم الوليد الحجاز حاجا وزار المدينة ، فألفى أحفاد على بن أبى طالب يلوذون ببيت فاطمـة الى جوار المسجد ، ورأى فى ذلك تحريضا قد يعيـد الثورة مشبوبة بالحجاز من جديد . هنالك قرر أن يزيد فى المسجد ، وأن يدخل بيت فاطمة وبيوت النبى جميعا فيه .. لم يثنه عن ذلك جزع النـاس وبكاؤهم لازالة هـذه الآثار التاريخية الباقية للنبى ولحياته فى المدينة

وكان للوليد فى العمارة وزخرفها رأى غير رأى العرب .. فقـد قضى حياته بدمشق وبين الآثار المسيحية والرومية فى الشام . وقد أقام والده عبد الملك بن مروان قبة الصخرة ببيت المقدس فبز بها الكثير من الكنائس البارعة .. لذلك لم يلبث حين استقر رأيه على هدم مسجد النبى واعادة بنائه ، أن كتب الى ملك الروم يستعينه بعمال وفسيفساء

وهدم عمر بن عبـد العزيز عامل الوليد على المدينـة مسجد النبى ، وأدخل فيه حجرات أزواج النبى وبينها حجرة عائشة .. بذلك أصبح القبر النبوى داخل المسجد . وبالغ عمر فى تجميل المسجد .. زخرف المحراب ، والشرفات ، والمنابر ، زخرفا لا عهد للعرب به . وعنى بسقف المقصـورة النبوية عناية جعلته بدعا فى الفن . وقد أعجب الوليد بن عبد الملك بما رأى من ذلك حتى لقد نظر الى ابان بن عثمان يقول له : «أين بناؤنا من بنائكم» لكن ابان أجابه : « انا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس »

حريق المسجد

تمت هذه العمارة سنة تسعين للهجرة .. وظل المسجد قائما بها الى سنة ست وستين ومائة ، حين جاء المهدى العباسى فأمر بزيادة المسجد .. وزيد فى ناحيته الشمالية زيادة كبيرة اتخذت لها عمارة الوليد طرازا . واستقرت

رقعة المسجد على زيارة المهدى الى سنة ٦٥٤ للهجرة ، اذ ترك موقد المصابيح مشعلا فى مخازن المسجد ، امتدت النار منه الى ما حوله ، وسرت الى المسجد فلم تبق على خشبة واحدة . أكلت النار المنبر النبوى والأبواب والخزائن والنوافذ والمقاصير وما اشتملت عليه من كتب ، وامتدت الى كسوة الحجرة . ووقع السقف الذى كان بأعلى الحجرة على سقفه بيت النبى ، فوقعا جميعا فى الحجرة وعلى القبور التى بها

كانت بلاد الدولة الاسلامية حينذلك فى قلق واضطراب.. لذلك اكتفت كل منها بأن بعثت من مواد العمارة الى المدينة ما أرضى عقيدتها . وقام أهل المدينة بما يستطيعون من عمارة المسجد .. لكن أحداث الاضطراب فى رقعة المملكة ، كانت تقف العمل وتجعله اذا سار يسير فى غير خطة مرسومة . فلما تولى الظاهر بيبرس أمر مصر ، بعد ست سنوات من الحريق ، جهز الصناع وكل ما يحتاج اليه البناء وبعث بذلك كله الى المدينة .. وسار العمل فى البناء حتى تم ، وقام المسجد كما كان قبل الحريق

لم يطرأ على عمارة المسجد بعد ذلك ، الى سنة ست وثمانين وثمانمائة ، تغيير جوهرى . وكل ما حدث أن جدد سقفه أو زيد فيه طمعا من بعض أمراء البلاد الاسلامية ، وأمراء مصر بنوع خاص ، فى المثوبة . أما فى سنة ست وثمانين وثمانمائة ، فقد انقضت صاعقة على مئذنة المسجد الرئيسية.. فانتقلت النار من المئذنة الى سقف المسجد ، ثم الى البناء كله ، حتى احترقت المقصورة والمنبر والكتب والمصاحف .. ولم يسلم من الحريق الا الحجرة وقبة مبنية بصحن المسجد

قايتباى يعيد المسجد

كان التطور الذى حدث فى عمارة المسجد ، بعد انقضاض الصاعقة عليه ، أكثر وضوحا .. لقد رأيت كيف انتقل من بساطته الأولى الى هذه العمارة الفنية البديعة التى ابتغى بها الملوك والأمراء مثوبة الله . أما بعد

حريق الصاعقة ، فقد وجد أمير مصر الملك الأشرف قايتباى من أعادوا بناء المسجد على صورة بلغت غاية التأنق ، واقتضت من النفقة ستين ألفا ذهبا من الجنيهات

كانت مصر هى التى تقوم بعمارة المسجد النبوى — أو بالحظ الأكبر منها فى تلك العهود — فلما آلت الخلافة لآل عثمان بالآستانة ، وجه سلاطين آل عثمان الى المسجد عناية فائقة .. ففى القرن العاشر الهجرى عمره السلطان سليم الثانى وشيد به محرابا جميلا لا يزال قائما الى اليوم غرب المنبر النبوى . وفى القرن الثالث عشر بنى السلطان محمود القبة الخضراء

وفى عهد السلطان عبد الحميد ، فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، لوحظ أن المسجد بحاجة الى العمارة بعد أن انقضى على عمارته أربعة قرون لم تحدث به أثناءها عمارة هامة . وقد كان المهندسون يهدمون جزءا من المسجد ويقيمون مكانه ما يحل محله ، ثم يهدمون بعده جزءا غيره ، حتى تمت عمارة المسجد كله فيما بين سنة ١٢٦٥ ، وسنة ١٢٧٧ . وقد زيد فى الجدار الشمالى ما كفى لبناء مخازن ومكاتب وأحواض للوضوء . وشيدت المئذنة المجيدية على طراز بالغ غاية الروعة والابداع . وبلغت نفقات هذه العمارة ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات المجيدية

خطوط رائعة

وقد سجلت هذه العمارة من آثار الفن الاسلامى فى بناء المسجد ما لايزال حتى اليوم بهجة الأنظار .. كتبت على جدران المسجد سورة الفتح ، وأسماء الله الحسنى ، وقصيدة البردية ، وأسماء النبى عليه السلام ، بخط بالغ غاية الروعة والدقة الفنية . والخط العربى هو الذى حل محل التصوير والنقش ، بعد أن حارب الاسلام التماثيل والصور . وقد قضى الخطاط العظيم عبد الله بك زهدى عشر سنوات فى كتابة ما كتب على جدران المسجد من هذه الآيات الرائعة فى عالم الفن

هذه العمارة هي القائمة الى اليوم ، لم تزد عليها الا بعض ترميمات فى محاريبه وفى أرضه وفى عمده

الروضة النبوية

على أن ما أشرت اليه من أمر المسجد لم يتناول القسمين الهامين فيه : أقصد القبر النبوى والروضة النبوية — والروضة هى الجزء الواقع من المسجد بين قبر رسول الله ومنبره ، وذلك لما روى عنه عليه السلام أنه قال : « بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » . والروضة تمتد اليوم الى ما بعد منبر النبى ويطلق اسمها على كل القسم الذى به عمد مسجد النبى . وقد نقشت عمد الروضة بالأزهار ، وقام على جانب منبر النبى محراباَن آية فى الدقة والجمال . وفرشت أرض الروضة بأثمن السجاجيد

وتعتبر الروضة النبوية من أكثر الأماكن الاسلامية تقديسا .. فكل من أم المسجد بدأ بزيارة القبر النبوى ، ثم ذهب الى الروضة يصلى فيها تحية المسجد ، ويبقى الى الفرض الذى يلى حضوره .. وقد يبقى بها الى أكثر من فرض . وهو يجد فيها المصاحف ودلائل الخيرات موضوعة على كراسيها ، يقرأ فيها من شاء تبركا ومثوبة

فأما القبر النبوى والحجرة النبوية ، فموضع الاجلال والتقديس .. يؤمهما الزائر لأول ما يدخل المدينة ، كما يؤم الكعبة لأول ما يدخل مكة .. ويتلو عندهما من الدعوات ما شاء الله أن يتلو ، ويصلى فى الروضة على مقربة منهما ما شاء الله أن يصلى . وجمال الحجرة والقبر فى داخلهما يأخذ بالنظر ، لكنهما يثيران فى النفس من العبرة ما يزيدها للنبى العربى اجلالا وتقديسا

لقد كانت هذه الحجرة آية فى البساطة يوم دفن فيها رسول الله . كانت قبرا سوى على صاحبه عليه السلام . وظلت حجرة القبر على بساطتها الى أن أمر الوليد بن عبد الملك بضمها ، وضم بيوت أمهات المؤمنين الى

المسجد .. عنـد ذلك ، أقام عمر بن العزيز الحجرة فخمـة لا تمت الى بساطتها الأولى بأية صلة . ولقد أنكر أولو الورع من المسلمين ما حدث من ذلك ، وعدوه بدعة ، ورأوا فيه خروجا على الأسوة الحسنة ..

لكن ذلك لم يغير شيئا من اتجاه المسلمين بعد الى الناحيـة التى اتجه اليها الوليد بن عبد الملك .. فقد تجدد بناء الحجرة بعد ذلك غير مرة ، وفى كل مرة كانت عمارتها تزداد فخامة عن المرة التى سبقتها .. ثم ان الحجرة كسيت كسوة مطرزة أجمل طراز .. ثم جعلت الهدايا تهدى اليها ، وفى مقدمتها قناديل الذهب والفضـة . وقد بلغ وزن قناديل الذهب فى وقت من الأوقات تسعة قناطير . كذلك أهديت للحجرة هدايا من الأحجار النفيسة ، كان بينها حجر من المـاس أطلق عليه اسم الكوكب الدرى ، قدرت قيمته بثمانمائة ألف جنيه ذهبا . وعلق تحت هذا الكوكب الدرى ، كف من الذهب مرصـع بالجوهر فى وسـطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى .. هذا الى نفائس كثيرة لا تقدر بثمن

لم يبق لهذه النفائس اليوم أثر بالحجرة ، لأن تقلب الأحوال والنظم السياسية على الحجاز فى هذا القرن العشرين أدى الى نقلهـا الى حيث توجد اليوم

القبر النبوى ، والروضـة ، والمسجد النبوى .. هـذه هى المجموعة المقدسة التى تلى فى نظر المسلمين الكعبة بيت الله الحرام . وهى لا ريب مجموعة لا نظير لها بين الآثار الاسـلامية فى قيمتها التاريخية وفى قيمتها الفنية

المسجد الأقصى

تناولت الفصول السابقة المامات سريعة عن الأماكن المقدسة بالحجاز.. وننتقل الآن الى فلسطين ، لنتحدث عن أماكنها المقدسة .. وأولها المسجد الأقصى ..

. والمسجد الأقصى من الأماكن المقدسـة عند المسلمين .. لكنه يرجع فى تاريخه الى عهد قديم سبق الاسلام والمسيحية واليهودية جميعا . وهو فى سبقه الأديان الثلاثة ، يشبه الكعبة وان لم يكن له قدمها . والمسجد الأقصى يقوم على الصخرة التى كان يقوم عليها هيكل سليمان ، وقد روى عن رسول الله أنه قال : « ان الله أوحى الى داود ، أن ابن لى بيتا أذكر فيه » فخط داود خطة بيت المقدس ، فاذا تربيعها بدار رجل من بنى اسرائيل .. فسأله داود أن يبيعه اياها فأبى ، فحدث داود نفسه أن يأخذها ، فأوحى اليه الله أن يا داود أمرتك أن تبنى لى بيتا أذكر فيه ، فأردت أن تدخل فى بيتى الغصب ، وليس من شأنى الغصب . ان عقوبتك ألا تبنيه . قال : يارب فمن ؟.. ولدى ؟.. قال : ولدك .. وبناه سليمان ابن داود

وتذهب بعض الروايات الى أن داود أقام بيتا صغيرا للعبادة ، وأن سليمان هو الذى أقام الهيكل من بعده . وفى رواية أخرى ، أن البيت الذى أقيم على الصخرة المقدسة يرجع فى تاريخه الى ما قبل داود .. ولعله نسب الى الملائكة أو الى آدم كما نسب بناء الكعبة

وبنى سليمان الهيكل على الصخرة المقدسة التى اختارها أبوه بوحى من ربه .. بناه فخما على طراز هياكل المصريين القدماء ، فجعل له بابا رفيع العمد ، وجعل له من وراء الباب بهوا فسيحا تقوم فيه العمد .. ثم جعل من وراء البهو قدسا للاقداس . وكما اتخذ طراز المصريين فى نظام البناء ، اتخذ طرازهم فى جلاله وفخامته وعظمته . ولم يكن عجبا أن يبنى سليمان

على الطراز المصرى الفرعونى ، وكثيرا ما كانت مصر تغير على فلسطين وتخضعها لحكمها .. هذا الى أن البلاد المشاطئة للجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ـــ مصر وفلسطين وفينيقيا واليونان ـــ كانت دائمة الاتصال فى شئونها التجارية والفنية والثقافية

احتراق الهيكل

كانت مصر حاكمة فلسطين قبل داود وسليمان .. وقد استقلت فلسطين عن مصر فى عهدهما ، ثم عادت بعد وفاة سليمان الى مصر فى عهد الفرعون شيشاك . وحكمت فارس فلسطين بعد ذلك ، فاحترق بيت المقدس واحترق الهيكل أثناء حكمها ، ثم أقام حاكم الاقليم بيت المقدس بأمر كسرى ، ثم أقام الهيكل من غير أن يجعله فى مثل جلاله وعظمته يوم أتم سليمان تشييده

كان حريق الهيكل فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد .. وقد أعيد بناؤه فى سنة ٥٢٠ قبل الميلاد . وأهديت اليه حاملات الشمع والمباخر المصنوعة من الذهب ، فعوضته بعض الشيء عما أصابه بعد بانيه الأول

استقر اليهود بفلسطين من بعد موسى ، واتخذوا من هيكل سليمان معبدهم والمكان المقدس لشعائرهم .. واذ كانت فلسطين معرضة لغزو مصر وغزو فارس وغزو الروم ، فقد حصنوه أكمل تحصين ، وقووا عمارته وأكثروا من النفائس المهداة له .. بذلك أصبح قلعة ومعبدا فى آن واحد . وقد حاصر الأمبراطور الرومانى بومبى بيت المقدس فى سنة ٦٣ قبل الميلاد فصمدت له ، وكان حصن الهيكل المقدس من الحصون المنيعة التى قاومته .. صحيح انه انتهى الى اخضاعها ، لكن مقاومتها كانت ذات خطر حين الحصار من ناحية ، ومهدت للثورة بالحكم الرومانى بعد ذلك بقليل من ناحية أخرى

هيرودس الفلسطينى

على الرغم من هذه الثورة ، تمكن هيرودس الفلسطينى من أن يكون

عامل روما على فلسطين ، وأن يخضعها لحكم الأمبراطورية . وقد استطاع بمهارته أن يحمل اليهود من رعاياه على اقراره على هدم الهيكل واعادة بنائه . وقد هدمه وأعاد بناءه على صورة من الفخامة ، ضاعفت مساحة بعض الأجزاء فيه ، ورفعت البعض الى ضعف ارتفاعهـا السابق وخلعت عليه بهاء أعاد له بهاءه حين بناه سليمان ان لم يزد عليه ، كما جعل به من النفائس أكثر مما كان فيه من قبل

ظل هيكل سليمان المكان المقـدس لليهود بفلسطين الى أن استقرت المسيحية بها وحاربت اليهودية فيها . وقد جنى ذلك على الهيكل حتى كاد يصبح أطلالا . فلما غزا العرب سوريا ومصر ، أحالوا الهيكل مسجدا ، هو المسجد الأقصى .. على ان اسم المسجد الأقصى قـد أطلق عليـه فى الاسلام ، قبل غزو العرب بلاد الشام ، وقبل دخولهم فلسطين . أطلق عليه فى القرآن لمناسبة حديث الاسراء فى قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » . والمسجد الحرام هو مكة .. والمسجد الأقصى هو الهيكل ببيت المقدس .. وورود هذه التسمية فى القرآن ، تشهد بأن لفظ المسجد كان مستعملا عند العرب لكل مكان للسجود والعبادة ، وانه لم يكن مقصورا ــ كما هو اليوم ــ على أماكن العبادة الاسلامية

فالمسجد الحرام لم يكن يزيد ــ يوم نزلت هـذه الآية ــ على الكعبة ومطافها . وهذا المسجد لم يكن يومئذ اسلاميا كما هو اليوم ، بل كان للعرب جميعا على اختلاف نحلهم ، وكانت أصنـام العرب قائمة فيه ، والمسجد الأقصى لم يكن قد اتصـل بالاسلام والمسلمين فى شىء الا فى حديث الاسراء

الاسراء والمسجد الاقصى

والاسراء هو الذى جعـل المسلمين يتطلعون ، بعد أن فتحوا الشـام ووضعوا أيديهم على بيت المقدس ، الى المسجد الأقصى لجعله من أماكنهم

المقدسة .. فأكثر الروايات التي وردت عن الاسراء ، تذهب الى أن رسول الله قيد البراق بالصخرة المقدسة حين بلغ به الاسراء الى بيت المقدس ، وانه صلى على أطلال هيكل سليمان اماما لابراهيم وموسى وعيسى ، وانه عرج الى السماء بعد ذلك متخذا من صخرة يعقوب مرتكزا للمعراج . فلما بلغ سدرة المنتهى ، وأتم الله آيته ، عاد رسوله الى بيت المقدس فامتطى البراق كرة أخرى الى مكة

لا جرم ، وذلك شأن المسجد الأقصى ، أن يتطلع المسلمون اليه على انه من أماكنهم المقدسة .. فاذا أضفت الى ذلك أن المسجد الأقصى كان قبلة المسلمين يتوجهون اليه فى صلواتهم منذ بعث رسول الله ، وطيلة مقامه بمكة ، وفى السنتين الأولى والثانية بعد هجرته الى المدينة ، الى أن حولت قبلة المسلمين الى المسجد الحرام .. اذا أضفت هذا الاعتبار الى الاسراء ، لم يكن عجبا أن ترى المسلمين يتخذونه مكانا مقدسا لهم ، ويقيمون فيه حرما كالحرم المكى وكالحرم المدنى ، وأن يكون له عندهم من القداسة ما لايزال يقتضيهم عناية به كعنايتهم بالبيت الحرام والمسجد النبوى من حيث العمارة والصيانة والرعاية

الاهتمام بالمسجد

على أن المسلمين لم يعيروا المسجد الأقصى عنايتهم فى عهدهم الأول .. وما كان لهم أن يفعلوا ، وهم لم يفتحوا بيت المقدس الا فى عهد عمر بن الخطاب . وما كان عمر ليفكر فى عمارة المسجد الأقصى ، أو فى اقامة القبة على الصخرة المقدسة فى أعقاب الفتح ، بينما المسلمون فى شغل بمحاربة الروم وفارس .. بل لقد كان تفكير عمر متجها حين فتح بيت المقدس الى اقناع أهلها حتى يستريحوا الى حكم المسلمين ، ويرونه خيرا من حكم الروم

لما تغلب عمرو بن العاص على القائد الرومانى أرطبون فى فلسطين ، وكان على أبواب بيت المقدس ، أعلن بطركها صفرنيوس انه يريد التسليم

والصلح على شريطة أن يجيء الخليفة عمر بنفسه الى المدينة المقدسة .. وسار عمر من المدينة الى ميدان الحرب لعقد هذا الصلح وابرام شروطه وفتحت بيت المقدس أبوابها أمامه بعد توقيع الصلح . وصحب صفرنيوس عمر يوما خلال المدينة يريه آثارها ومواضع الحج فيها .. واذ أدرك عمر موعد الصلاة ، وهو بكنيسة القيامة ، طلب البطرك اليه أن يصلى بها ، فهى من مساجد الله .. لكن عمر اعتـــذر بأنه ان يفعل اتبعه المسلمون ، واعتبروا عمله سنة مستحبة .. فأدى ذلك الى اخراج المسيحيين من كنيستهم ثم صلى فى مكان قريب من الصخرة المقدسة على أطلال الهيكل . وفى هذا المكان أقيم من بعـــد مسجد عمر ، وهو الذى أطلق عليه اسم المسجـــد الأقصى .. أقامه عمر من ساذج البناء ، كمسجد النبى بالمدينة يوم أقيم

وظلت الدولة الاســلامية من بعد ، فى شغل بحروبها طيلة عهـــد عمر وعثمان ، ثم شغلت بالخلاف ما بين على ومعاوية .. لذلك لم يفكر احد فى عمارة مسجد عمر ببيت المقـــدس عمارة تضارع بيوت العبـــادة فى بلاد الشام ، وظل الحال على ذلك الى أن تولى عبد الملك بن مروان الأموى الحكم

كانت الثورة على الأمويين ما تزال مشبوبة فى الحجاز ، وعلى رأسها عبد الله بن الزبير بمكة .. وكان هؤلاء الثائرون موضع عطف الكثيرين من العرب والمسلمين لأنهم كانوا ينتمون الى أهل بيت رسول الله .. ثم انهم كانوا سدنة البيت الحرام بمكة والقائمين على شئون مسجد النبى عليه السلام بالمدينة ، فكان حج المسلمين واختلاطهم بهم يزيدهم عطفا عليهم

قبة الصخرة

وقـــد أشرنا الى أن عبد الملك بن مروان ، كان قد شـــغف بالعمـــارة البيزنطية لمقامه بدمشق بين كنائس النصارى وآثارهم وانه لذلك كان أول من قام بعمارة البيت الحرام بمكة على نحو زاوج بين البساطة وما يطمئن له فن العمـــارة .. واعادته بناء البيت الحرام ، لم يكن أول عمـــل له فى العمارة .. فقد قام قبل ذلك بتشييد مساجد بالشام فيها جمال فنى يأخذ

بالقلوب والأبصار ، على أن أروع آياته فى البناء وأشدها أخذا بالنظر كان فى عمارة قبة الصخرة وبناء المسجد الأقصى .. فقد شاد القبة على نحو بز ما قام به من بعد فى عمارة البيت الحرام ، بل لعله قد بز ما بناه من المساجد والعمائر

وقد دهش الناس لفائق عنايته ببناء قبة الصخرة ، وترامت أنباء ذلك الى مختلف الأمصار الاسلامية ، وتساءل كثيرون ما قصده من هذه المبالغة فى عمارة القبة ؟.. وزاد فى تساؤلهم أن عبد الملك حظر الحج على المصريين وأهل الشام بحجة الثورة القائمة بالحجاز . عند ذلك أذاع عبد الله بن الزبير فى الناس أن عبد الملك قصد من بناء القبة والمسجد الأقصى الى صرف الناس عن حج البيت الحرام والمسجد الحرام الى حج المسجد الأقصى والصخرة المقدسة متأسيا فى ذلك بأبرهة حين بنى بيت صنعاء ليصرف الناس عن بيت مكة . ويتعذر القطع بصحة ما أذاعه ابن الزبير من هذه الدعاية ، وبخاصة لأن ابن الزبير مات بعد ذلك بقليل .. وعلى أثر موته استولى عبد الملك على مكة ، وقام بعمارة المسجد الحرام على نحو أرضى به ذوقه الفنى ، كما أنسى المسلمين تلك الدعاية التى أذاعها ثائر الحجاز ضده

وأرصد عبد الملك لبناء القبة مالا كثيرا ، قيل انه خراج مصر سبع سنين .. وجمع الصناع من الفينيقيين ، واستعان بصناعة بيزنطية . وبعد أن وضع تصميم لبناء القبة رضى عبد الملك عنه ، تولى رجاله تنفيذ ذلك التصميم وأتموه على خير وجه . ومع ذلك ، بقى من المال الذى خصص لهذا الغرض مائة ألف دينار ، أنفقت فى عهد الوليد بن عبد الملك لاتمام بناء المسجد الأقصى ، ولتقوية أجزاء وهت منه

ولم تكن عناية عبد الملك بعمارة المسجد الأقصى دون عنايته بعمارة قبة الصخرة ، فقد جلب له عمد الرخام .. أقام عليها خمس عشرة قبة وسقفه بالخشب الجميل المتين ، وجمل به أربعة منابر وأربعة وعشرين صهريجا ، وجعل له أبوابا كثيرة وعلق فيه قناديل ، بالغ الرواة فى عددها حتى بلغ به بعضهم خمسة آلاف ، ورتب له ثلثمائة خادم

ظل المسجد ، وظلت القبة بعد ذلك ، أربعة قرون فى يد المسلمين محاطة من آى الاجلال والاعظام بما أحيط به البيت الحرام والمسجد الحرام ، حتى لم يكن يباح لغير مسلم أن يطأ أرضهما . فلما كانت أواخر القرن الخامس الهجرى ، دخل الصليبيون الشام وتقدموا الى فلسطين ووضعوا يدهم على بيت المقدس فى سنة ٤٩٢ هجرية . وقد أقاموا ببيت المقدس قرابة قرن كامل ، حتى أجلاهم صلاح الدين الأيوبى عنه فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .. بذلك عادت الى المسجد والى القبة قدسيتهما الأولى ، وعاد حراما على غير مسلم أن يدخلهما أو يطأ أرضهما

على أن الحروب الصليبية ، ظلت متداولة بعد ذلك بين المسيحيين من أهل أوروبا والمسلمين القائمين حول البحر الأبيض المتوسط . وقد استولى الصليبيون أثناءها على القدس غير مرة ثم أجلوا عنها.. واضطربت شئون المملكة الاسلامية بعد ذلك ، بسبب تعدد الدول واقتتال الملوك والأمراء الى أن آل الأمر الى آل عثمان . ولم يغير ما حل بالمملكة الاسلامية من الاضطراب من حرمة بيت المقدس على المسلمين ، ومن حرمة المسجد والقبة بنوع خاص . فلم يبح لغير مسلم أن يدخلهما أو يطأ أرضهما الا بعد حرب القرم فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم يبح ذلك الا بمقدار ، وفى حدود ضيقة

ولا يزال المسجد الأقصى ، ولا تزال القبة ، ولهما من القداسة عند المسلمين ما كان لهما من قبل ، على رغم تبدل الأحوال السياسية .. وقدسيتهما هى التى تجعل الأمم الاسلامية ، وتجعل ملوك المسلمين يحرصون على عمارتهما الحين بعد الحين وكيف لا يذكر المسلمون المسجد الأقصى وهم يذكرون قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .. انهم سيذكرونه ويذكرون ما حوله مما بارك الله . وسيبقى هذا المسجد لذلك حرما مقدسا ، ما بقى الاسلام وما بقى المسلمون

- ٢ -

الأماكن المسيحية المقدسة

* كنيسة المهد ببيت لحم
* كنيسة القيامة

كنيسة المهد

تناولت الفصول السابقة عن الأماكن المقدسة بالشرق الأوسط ، الماماًت عن بيت الله الحرام وعن المسجد الحرام بمكة ، وعن المسجد النبوى بالمدينة ، وعن المسجد الأقصى بيت المقدس .. وهذه الأماكن المقدسة اسلامية كلها

فلننتقل بالحديث الآن الى الأماكن المسيحية المقدسة بفلسطين . وسنكتفى بأن نتناول مكانين اثنين منها : كنيسة المهد ببيت لحم ، وكنيسة القيامة ببيت المقدس

كان فى وسعنا أن نتحدث عن أماكن أخرى بفلسطين لها قدسيتها عند المسيحيين .. لكننا قصرنا حديثنا حتى الآن على الأماكن المقدسة التى لقيت على تعاقب الأجيال من العناية بعمارتها ما رأيت . ولم يلق أثر مسيحى من هذه العناية بفلسطين ما لقيت كنيسة المهد ، وكنيسة القيامة

ولا عجب أن يلقيا كل هذه العناية ، واحداهما تقوم ذكرا لمولد عيسى ، والأخرى تقوم ذكرا لدفنه قبل الصعود .. ومولد عيسى وقصة صلبه ودفنه وصعوده معجزتان على التاريخ ، من أروع ما قص التاريخ

ولد عيسى

فمولد عيسى معجزة فى الاسلام ، كما انه معجزة فى المسيحية .. فقد نفخ الله من روحه فى مريم ، فحملت فولدت عيسى .. فكان ذلك آية من آيات الله . وفى ذلك يقول تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت : انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا . قال : انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال : كذلك قال ربك هو علىّ هين

ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا »

والرواية المسيحية ، تجرى بأن مريم وضعت عيسى .. لمـا أحست قر الشتاء عقب وضعه ، حملته الى مزود قريب منها كانت الأبقار تأكل فيه ، أرادت بذلك أن يبعث اليه تنفس الأبقار من الدفء ما يقيه قارس البرد فى ذلك الفصل القرير . أما رواية القرآن لمولد عيسى فهى : « فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا » . ترى هل حملت مريم طفلها بعد ذلك الى مزود الأبقار لينال ما ابتغت له من الدفء ؟ ذلك ما لا محل الآن للكلام فيه

هيرودس يقتل الاطفال

ذكروا أن هيرودس ، حاكم فلسطين من قبل روما فى ذلك العهد ، رأى فى منـامه رؤيا أفزعتـه .. فطلب الى أهل العلم بالأحلام أن يفسروا له ما رأى ، فذكروا له أن من بين الأطفال الذين ولدوا فى الأعوام الخمسة الأخيرة طفلا ، سيكون له شأن يقض مضجع الامبراطورية ويسوء أثره فيها . ورأى هيرودس أن الخير فى قتل الأطفال الذين ولدوا فى هـذه الفترة جميعا . وقتلهم ودفنهم فى مغارة ببيت لحم . وكان عيسى قد ولد فى هـذه الفترة ، ففرت به مريم الى غار أقامت به حتى فرغ هيرودس من ارتكاب جريمته وقتل من قتل من الأطفال .. ثم انها تحملت بابنها ممتطية حمارا وسارت به ومعها يوسف النجار حتى بلغت مصر . وهناك أقامت ثلاث سنوات — فى رواية — واثنتى عشرة سنة — فى رواية أخرى — ثم عادوا بعد ذلك الى مسقط رأسه ، ومقر آبائها وأهلها بفلسطين

اين ولد عيسى ؟

أين ولد عيسى؟.. المقرر أنه ولد ببيت لحم ، على مقربة من بيت المقدس . وسترى خلال هـذا الحديث تحديد المكان الذى ولد فيه .. لكن قوما

يذهبون الى أنه ولد بالناصرة ، ويستدلون على ذلك بنسبته اليها . أليس هو عيسى الناصرى ؟.. لكن أصحاب الرأى المقرر ، لا يترددون فى القول بأن تسميته عيسى الناصرى لا ترجع الى مولده بالناصرة ، وانما ترجع الى مقامه بها ، وقيامه بتعاليمه فيها ، والى ما نسب اليه من المعجزات فى بحيرة طبرية التى تقع الناصرة عليها

ولسنا نأخذ بنصيب فى هذا الجدل الذى ثار حول مولد عيسى ، كما ثار حول مولد الأنبياء والعظماء فى مختلف العصور .. وغاية ما نذكره ، ان المدة التى انقضت بين مولد المسيح عليه السلام وبين اقامة الهيكل الذى شاده الامبراطور قسطنطين ، تذكارا لهذا المولد .. هذه المدة تزيد على ثلاثمائة سنة

هيكل قسطنطين

والهيكل الذى شاده قسطنطين ، هو النواة التى شيدت حولها كنيسة المهد على ما نراها اليوم . وكنيسة المهد هى الأثر الذى يذكر مولد السيد المسيح كما تقدم . وعلى مقربة منها ، تقوم مغارة أطلق عليها اسم مغارة الحليب .. يذكرون انها هى التى أوت اليها مريم ، وأقامت بها مع ابنها .. بينما كان هيرودس يقتــل الأطفال الذين ولدوا فى الفترة التى ولد فيها المسيح . وهذه المغارة جديرة بأن نقف بالقارىء وقفة قصيرة عندها ، بعد أن نتم حديثنا عن كنيسة المهد

قدمنا أن هذه الكنيسة ، أنشئت حول الهيكل الذى أقامه الامبراطور قسطنطين ، بعد ثلاثة قرون من مولد السيد المسيح .. ذكرا لهذا المولد . ولم يكن الموضع الذى أقيمت به خلاء يوم أقام قسطنطين الهيكل ، بل كان به معبد لادونيس .. أقيم فى عهد الامبراطور هادريان ، فأمر به قسطنطين فهــدم ، وقام الهيكل المسيحى مكانه . وسنرى حين الكلام عن كنيســة القيامة التى أقامها قسطنطين كذلك ، انها قامت على أطلال معبــد أقامه هادريان ببيت المقدس لعبادة الزهرة .. أمصادفة هذه ؟.. أم هى دليل على

ان هادريان كان يتعقب آثار المسيحية ويقيم فيها المعابد الوثنية ، ليعفى على الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره ؟ !

كان الهيكل الذى أقامه قسطنطين جميــلا ، ولكنه لم يكن فســيح الجنبات .. فلما آل أمر الامبراطورية الى جوستنيان ، أقام مكان الهيكل معبدا أفسح رقعة وأكثر بهاء . ولما انشعبت المسيحية الى شعبها المختلفة ، بدأت كل شعبة تبنى فى هذا المكان المقدس ، وحول الكنيســة الأولى ، ما طاب لها البناء . ومبانى طوائف الروم واللاتين والسريان ، ما تزال قائمة الى اليوم ، وما يزال لاختلاف هذه الطوائف أثره فى شعائر كنيسة المهد

مغارات الكنيسة

وكنيسة المهد اليوم ، فسيحة الجنبات مترامية الأطراف .. وأفنيتها تقوم فوق مغــارات كثيرة .. يروى لك الموكلون بها شيئا كثيرا من القصص المنسوب لها . فواحدة من هذه المغارات يطلق عليها اسم مغارة الأطفال ، وتذكر قصتها أنها المغارة التى دفن هيرودس فيها من أمر بقتلهم من الأطفال تفسيرا للحلم الذى أسلفنــا أنه رآه . ومغارة أخرى بها صــورة زيتية لقديس قيل أنه القديس جيروم الذى قضى بهذه المغارة ثلاثا وعشرين سنة يترجم الانجيل . وبين هاتين المغارتين وحولهما ، مغارات أخرى زينت كل واحدة منها بصورة زيتية تمثل المشهد الذى تخلد المغارة ذكره

تقع مغارة المهد على مقربة من مغارة الأطفال .. ومغارة المهد قبو ضيق ، يهبط اليه الانسان على درج نقر فى الصخر وهذا الدرج يصل بين المغارة وبين مذبح كنيسة المهد وهيكلها وقد نقرت فى الصخر ، الى جانب هــذا القبو ،فجوة ترتفع الى قامة الانسان ، وضعت فيها صــورة العذراء .. وثبتت فى مكان منها نجمة من الفضة تحدد المكان الذى قررت الطوائف المسيحية أنه مكان مولد المسيح ، وهو لذلك مكان مبارك عند الطوائف كلها . وكثيرا ما كانت بركته سبب منازعات دامية بين الطوائف المختلفة ، ابتغاء الاستئثار بهذه البركة

المزود !

يقابل نجمة الميلاد ، حوض من الحجر موضوع فى الأرض ، يذكرون انه المزود الذى كانت الأبقار تأكل فيه ، حين وضعت مريم طفلها ثم نقلته الى المزود اتقاء البرد القارس . ولا أظن أحدا يذهب الى أن هذا الحوض من الحجر ، هو المزود الذى وضع المسيح فيه بالفعل . فقد رأيت أن أول صورة لكنيسة المهد ، لم تكن الا بعد ثلاثة قرون من وفاة السيد المسيح ، وأن معبدا أقامه أدونيس فى هـذا المكان ، قبل بناء الكنيسة المسيحية لأول مرة

وهذا الحوض من الحجر الذى يمثل المزود ، ينحدر دون نجمة الميلاد قرابة مترين ، ويبعد عنها نحو ثلاثة أمتار : أفيكون هذا لأن مريم كانت فوق أكمة ساعة الوضع ، وان الأبقار ومزودها كانت فى سفح هذه الاكمة ، أم ان مريم كانت فى مغـارة هى محرابها الذى أشـار اليه القرآن ، وان الأبقار كانت فى بطن من الجبل دون المغارة .. هنا يجب أن أقول الله أعلم !

فجوتان عجيبتان

ليست كثرة المغارات فى هذا الموضع مثارا لعجب .. فهو جبل منبسط السطح ، يرتفع ثمانمائة متر فوق سـطح البحر ، وتقوم بيت لحم على سطحه .. ولعل مغاراته الكثيرة تفسر لنا أمرا يحار الانسان أول الأمر فى تفسيره . فأنت اذ تدخل من باب الكنيسة الى البهو الذى يفصل بين الباب ومذبح الكنيسة وهيكلها .. ترى فى أرض البهو بابين يستوقفان نظرك . فاذا فتح أى من هذين البابين ، ألفيته يغطى فجوة أشبه شىء بالمغارة أو الجب فاذا أضيئت هذه الفجوات ، رأيت أرضها من الفسيفساء المنقوشة نقشا بديعا يمثل الفاكهة والنبات والطير وما اليها

وقد كشف هاتين الفجوتين ــ منذ أمد غير بعيد ــ مهندس فرنسى كان يقوم بترميم بعض الأجزاء فى أعلى الكنيسة . ويظهر انه كان قد وقع فى قراءاته على ما هداه الى أن هـذه الكنيسة تقوم فوق آثار كنيسة

سبقتها ، كما هداه الى موضع هذه الفسيفساء . وقد حفر فى هذين المكانين اللذين تقوم الأبواب فوقهما فصدق ظنه . ولم يحفر فى غيرهما لأن قراءاته دلته على أن ليس فى غيرهما ما يهدى الحفر اليه

قلت ان الفجوتين تقعان فى البهو ، بين باب الكنيسة ومذبحها وهيكلها. والمذبح والمعبد لكنيسة المهد آية فى الابداع والروعة الفنية ، فضلا عن قيمتهما لما يحتويان عليه من تماثيل وآنية من الذهب أهداها المؤمنون الذين بسط الله لهم فى الرزق طلبا للمثوبة ، وابتغاء المزيد من سعة الرزق

باب الكنيسة

أما باب هذه الكنيسة ، فأمره عجب .. لقد ألف الناس فى أبواب الكنائس بهاء وعظمة وجلالا ، وألفوا فيها دقة فى الفن توازى سائر أجزاء الكنيسة أو تزيد عليها . وكنيسة المهد من أفخم الكنائس وأفسحها رقعة وأكثرها مهابة .. أما بابها فأعجوبة من الأعاجيب .. فهذا الباب أدنى لأن يكون فجوة ضيقة لا يمكن أن تكون بابا لمعبد من المعابد بالغا ما بلغ صغره ، وأنت حين ترى هذا الباب ، لايذهب بك الظن الى أنه أكثر من مدخل لصومعة راهب من الرهبان نذر الرواقية والتقشف . وكيف يزيد على ذلك ، وهو دون قامة الانسان ارتفاعا ، ولا يمكن لأكثر من رجل واحد أن يدخل منه حانيا رأسه ؟ !

وانما دعا لبناء الباب بهذا الضيق ، ما ذكرنا من أن طوائف الروم واللاتين والسريان ، قد اشتركت على الأجيال فى بناء هذه الكنيسة والمنازل المحيطة بها ، وان بين هذه الطوائف من الخلاف ما تخشى مغبته اذا ثار .. فلكل طائفة من هذه الطوائف حقوق فى الكنيسة ، اذا اعتدت طائفة أخرى عليها كانت الثورة الدامية . لذلك تحرص الحكومة على ألا تدع لأسباب الخلاف أن تثور ، وعلى ألا يدخل الكنيسة الا من تريده أن يدخل

ولتتبين لك صورة من هذا الخلاف ، أعود بك الى ذكر نجمة الميلاد .. فهـذه النجمـة كثيرا ما كانت تنزع من مكانها حين كانت تتقرب طائفة بنجمة أخرى مصنوعة من الذهب أو مرصعـة بالماس . وعند ذلك كانت الطوائف تختلف على ملكية النجمة .. لذا وضعت السلطات هذه النجمة من الفضة حتى لا تدعى طائفة ملكيتها

وصورة أخرى لخلاف الطوائف ، بساط ممدود الى جانب أول عماد من عمد الكنيسة ، قائم الى يسارك بعد دخولك من بابها الضيق .. هذا البساط لا يستطيع أحد تقديمه أو تأخيره عن المكان الذى هو به ، أو تلتحم الطوائف التحاما داميا .. فلكل طائفة موضع من البساط أو حوله ، ان تقدمت أو تأخرت عنه مست حقا لطـائفة أخرى . وتنظيف البسـاط وكنس ما حوله مقررة فيه حقوق الطوائف ، كالبساط نفسه .. فلا يجوز لطائفة أن تكنس التراب من موضع ليس لها ، أو تتهم بأنها تسعى الى حق تغصبه غيرها . وتحافظ الحكومات على حقوق الطوائف محافظة دقيقة ، مخافة ما يجره التفريط فيها أو الاعتداء عليها من نتائج وخيمة العاقبة

مغارة الحليب

تقع مغارة الحليب قريبة من كنيسة المهد .. وهى أكثر سعة من المغارات القائمة تحت الكنيسة المذكورة . وتختلف المغارة فى تنسيقها الحالى عن سائر مغارات الكنيسة ، وان تشابهت جميعا فى طبيعتها .. ففى أول مغارة الحليب ـــ بعد المدخل ـــ تمثال صغير للعذراء والمسيح ممتطيين حمـارا يسير بهما الى مصر ، ويسير الى جانبه رجل لعله يوسف النجار وينحدر الانسان الى كنيسة صغيرة ، يخال انها منقورة فى الصخر ، وان هبط اليها ضوء النهـار من أعلاها . والى جانب الكنيسة الايمن ، صـورة كبيرة للعذراء . .وهذه الآثار كلها تضيئها الكهرباء مختلف ألوانها ، فتلقى عليها بهاء لا مثيل له فى مغارات الكنيسة الكبرى .

ليس لمغارة الحليب من القدسية ما لكنيسة المهد بطبيعة الحال .. وليس في كنيسة المهد مكان أكثر قدسية من مكان المهد نفسه . وليس يزيد على كنيسة المهد في القدسية غير كنيسة القيامة ببيت المقدس

كنيسة القيامة

أشرنا الى معجزة الله فى مولد عيسى .. وكنيسة المهد تقوم ببيت لحم ، ذكرا لهذا المولد ولهذه المعجزة .. أما كنيسة القيامة ، فانها تقوم ذكرا للرواية المسيحية عن صلب المسيح وصعوده الى السماء ، وقصة الصلب والصعود معجزة — هى الأخرى — جديرة بالذكر ، وبأن يقام لها هذا الأثر الفخم الذى يحج اليه المسيحيون من أقطار الأرض جميعها ، والذى كان مثارا للحروب الصليبية التى امتدت على القرون

والاسـلام والمسيحية يختلفان فى صلب المسيح ، وان أمكن التوفيق بينهما فى قصة الصعود . وليس يرجع الخلاف على قصة الصلب الى خلاف على مقدماتها وما سبقها ، ولا الى خلاف على واقعتها .. بل يرجع الى وقوع الصلب على شخص المسيح نفسه . أما الصعود ، فقد ورد ذكره فى القرآن فى غير موضع .. اذ يقول تعالى يخاطب المسيح : « انى متوفيك ورافعك الىّ » ويقول : « بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما »

قصة الصلب

لا يقع الخلاف فى قصـة الصلب على مقدماتها .. فالمسـيح كلمة الله ورسوله ، عند المسلمين وعند المسيحيين .. أرسله الله الى قومه بفلسطين حين حكمتهم روما حكم بطش واستبداد ، وحين فرقت كلمتهم ، وجعلت للأغنياء وذوى المكانة سلطانا على الفقراء ، وعلى الشعب يسومونه سوء العذاب . ولم يكن شعب فلسطين يومئذ ، قد استسلم الى المذلة ورضى حكم الرومان .. بل كانت أسباب الثورة تضطرب بها أحشاء البلاد كلها ، وكان الناس هناك يؤمنون بأنهم سيتحررون من نير روما ، بل سيحكمون العالم بدورهم عما قريب

فلما قام المسيح بينهم وجعل يذيع تعاليمه فيهم ، بدأت السلطات تخاف

أثره ، وبدأ الأغنياء وذوو المكانة ورجال الدين من اليهود يناوئونه .. على أن سخطهم عليه وثورتهم به ، لم يبلغا ذروتهما حتى جاء بيت المقدس . أما حين كان يلقى تعاليمه على أتباعه متنقلا من الناصرة الى الجليل الى غيرهما من البلاد ، فيتناقلها الناس ويذيعون بينهم معجزاته .. فقد كان البرم به محصورا فى دائرة ضيقة ، فلما دخل بيت المقدس بعد أن ذاعت فى الناس معجزاته وتعاليمه ، خشى اليهود مغبة ما يصيبهم اذا استفحل أمره ، وزينوا للحاكم من قبل روما ما جعله يعتقد أن المسيح يضلل الناس بما يزعم من احياء الموتى وابراء المرضى واعادة الصواب الى ذى الجنة .. وجيء بعيسى ، وحوكم فحكم عليه بالموت . وكانت عقوبة الاعدام تنفذ بالصلب فى مصر وروما وفلسطين ، وغيرها من البلاد المجاورة لها .. وصلب عيسى ، ودقت المسامير الى يديه وساقيه ، فسال دمه .. فافتدى به خطايا الخلق . فلما مات ورفع من فوق الصليب ، أودع قبرا هو الذى تقوم كنيسة القيامة اليوم ذكرا له . وبعد ثلاثة أيام من دفنه ، عاد الى أصحابه حيا ، فأمرهم أن يتفرقوا فى الأرض فيذيعوا فى الناس تعاليمه . وتفرق الحواريون ، واتبعهم من اتبعهم ، وظلوا يسامون فى روما وفى غير روما ألوان العذاب ، حتى لان قلب العاهل الرومانى قسطنطين الى المسيحية فاعتنقها ، وكان أول من أمر ببناء كنيسة المهد وكنيسة القيامة

هذه المامة سريعة عن صلب المسيح ، كما يصور فى الأناجيل وفى التواريخ المسيحية . أما الروايات الاسلامية ، فتنفى أنه صلب وان لم تنف ما سبق الصلب . وهى تنفى الصلب بقوله تعالى : « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم . وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه . ما لهم به من علم الا اتباع الظن . وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما »

ويقول المؤرخون المسلمون أن اليهود ضاقوا ذرعا بالمسيح ، فشكوه الى الحاكم الرومانى ، فأمر بالقبض عليه .. فلم يعثر به الباحثون عنه ، وانما عثروا برجل يشبهه .. فساقوه الى المحاكمة مربوطا فى حبل . وجعل

اليهود يقولون له : « ان كنت تحيي الموتى ، أفلا تخلص نفسك من هذا الحبل ! » ثم يوجهون اليه ألوان الأذى والاساءة .. فلما صلب ومات استوهبه يوسف النجار من الحاكم الرومانى فيلاخوس ودفنه فى قبر كان يوسف أعده لنفسه

ليس المقام هنا مقام تفصيل لصعود عيسى ، أكان بجسده أم بروحه ، وما وقع على ذلك من خلاف ، فنحن انما سقنا ما تقدم تمهيدا للحديث عن كنيسة القيامة التى أقيمت ذكرا لدفن عيسى فى القبر الذى رفع منه الى الله بعد أن توفاه

هيكل لادونيس

سبقنا الى القول حين حديثنا عن كنيسة المهد ببيت لحم ، أن قسطنطين بنى المعبد الأول لذكر الميلاد ببيت لحم بعد وفاة عيسى بثلاثمائة سنة ، وانه بنى هـذا المعبد فى المكان الذى كان يقوم فيـه هيكل لادونيس بنـاه هادريان .. ومثل ما حدث ببيت لحم لكنيسة المهد ، حدث ببيت المقدس لكنيسة القيامة . فقد بنى هادريان عدة مساجد وثنية أثناء حكمه ، ومن بين هذه المعابد معبد لافروديت أو الزهرة ببيت المقدس . وكان بناء هذا المعبد الوثنى فى سـنة ١٣٥ ميـلادية .. فلما تولى قسطنطين امبراطورية روما ، واعتنق المسيحية بعد ست سنوات من امبراطوريته ، شن حروبا عدة حالفه النصر فيها ، وكان يعتقد أن الصليب سبب انتصـاره . لذلك حول أن يبحث عن مكان صلب المسـيح وعن مكان مولده ، واهتـدى البـاحثون الى أن مكان المولد ، كان حيث يقوم هيكل لادونيس ، وان مكان الصلب كان حيث يقوم هيكل افروديت . أترانا نستنتج من هذا ان هادريان عرف مكان مولد المسيح ، ومكان صلبه ودفنه ، فأقام فيهما هذين الهيكلين ليعفى على آثار المسيحية الناشئة ، أم ان الأمر يرجع الى محض المصادفة ؟.. يقول الباحثون انه محال القطع فى هذا الأمر برأى يستند الى سند علمى

قرر الامبراطور قسطنطين أن يقيم كنيسة حيث صلب المسيح ، ومن حيث صعد الى السماء .. فعهد بالبحث عن مكان الصلب والدفن والصعود الى القس مكاريوس . وقرر هذا القس أن المكان الذى كلف بالبحث عنه ، يوجد تحت الهيكل الذى أقامه هادريان للزهرة . وأمر الامبراطور فهدم الهيكل ، فوجد قبرا منقورا فى الصخر .. وعلى مقربة من هذا القبر الى ناحية الشرق ، وجدت صلبان ثلاثة لوحظ أن أحدها يشفى المرضى .. فلم يبق شك فى أنه هو الذى صلب عليه المسيح ، وان القبر المنحوت فى الصخر هو الذى دفن فيه بعد صلبه . وأبلغ هذا الاكتشاف الى الامبراطور قسطنطين ، فأمر مكاريوس أن يقيم عمائر فخمة فى هذا المكان المقدس

نقف هنيهة قبل الكلام عن عمارة كنيسة القيامة من ذلك العهد ، فنذكر أن كثيرين أبدوا الريبة فى صحة هذا الاكتشاف الذى أعلنه مكاريوس الى الامبراطور ، وان كتبا وبحوثا نشرت للتدليل على هذا الرأى . وليس فى ابداء هذا الرأى ، ولا فى نشر تلك البحوث ، عجب .. وقد نشر مثلها فى أمر كثير من الأماكن المقدسة فى أديان مختلفة ، ونشر مثلها فى أمر كثيرين من العظماء ، ومن يذكر التاريخ أنهم وجهوا العالم فى عصرهم وجهة جديدة . فاذا ذكرنا أن مكاريوس بدأ بحثه عن مكان الصلب ومكان الصعود بعد وفاة المسيح بثلاثة قرون ، وان الحرص على تحديد هذين المكانين كالحرص على تحديد مكان مولده عليه السلام ، كان أقوى فى نفسه من الحرص على الأسانيد العلمية فى البحث .. التمسنا له ولأمثاله من العذر حسن نيتهم من ناحية ، وشدة توقهم لقيام معبد يذكر الناس بهذه الأحداث الجليلة فى حياة العالم الروحية من الناحية الأخرى

أبلغ مكاريوس اكتشافه الى الامبراطور قسطنطين ، فأمره الامبراطور أن يقيم عمائر فخمة ذكرا لصلب المسيح وصعوده . وشيدت يومئذ

كنيستان .. احداهما فوق القبر ، والأخرى حيث وجدت الصلبان الثلاثة.. وكانت هذه الثانية أكبر وأفخم . وبين الكنيستين ، قام مرتفع قيل انه مرتفع الجلجثة .. وسويت الأرض المحيطة بالكنيستين وأحيطت بالأبواب والعمد

وكانت كنيسة القبر ، كما بنيت فى ذلك العهد ، مستديرة قامت فوقها قبة جميلة . أما كنيسة الفداء أو كنيسة الصلب ، فكانت مستطيلة شيدت فوقها قبة هى الأخرى ، وأقيم الصليب الذى قيل أن المسيح افتدى عليه خطايا الخلق فى المرتفع القائم بين الكنيستين

***

تم بناء الكنيستين سنة ٣٣٦ للميلاد ، وظلتا قائمتين الى سنة ٦١٤ ، اذ أصابهما الفرس بتلف جسيم ، ونقلوا الصليب الأعظم الى بلادهم . وذلك حين دخلوا بيت المقدس فى حكم كسرى .. على أن هذا الحكم لم يطل عهده . فقد انتصر هرقل على الفرس فى سنة ٦٢٥ ، فأصلح عامله على بيت المقدس ما تلف من الكنيستين استعدادا لدخول هرقل المدينة المقدسة ورده الصليب الأعظم الى مكانه

ودخل العرب فلسطين فى عهد أبى بكر الصديق ، ثم فتحوا بيت المقدس فى عهد عمر بن الخطاب .. فلم يتعرضوا للمعابد المسيحية بأذى ، وبقيت كنائس بيت المقدس فى عزها وكرامتها

أفكانت الكنيستان قائمتين حين فتح عمر بيت المقدس ، أم انهما كانتا أدمجتا فى كنيسة واحدة . ليس من اليسير القطع فى الأمر برأى .. فمنذ القرن الثامن الميلادى ، لم يذكر أحد ممن حجوا بيت المقدس كنيسة الصليب .. وانما كانوا يذكرون جميعا كنيسة القيامة ، أترى هدمت كنيسة الصليب قبل الفتح العربى أو بعده بقليل ، أم أن كنيسة القيامة أصبحت ذات مكانة خاصة أنست الحجيج من المسيحيين الكنيسة الأخرى .. لست أبدى فى الأمر رأيا

***

وفى أوائل القرن الحادى عشر ، أمر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ،

فهدمت كنيسة القيامة حتى لم يبق منها الا أطلال.. لكن ما أصاب الكنيسة المسيحية المقدسة من هذا الشر لم يدم طويلا ، فقد استولى الصليبيون على بيت المقدس فى أواخر ذلك القرن الحادى عشر ، وأعادوا بناء الكنيسة على نحو من الفخامة ووسعوا رقعتها .. ثم جعل المسيحيون من بعدهم يضيفون اليها على الأجيال ، حتى صارت الى ما هى عليه اليوم من فسحة وفخامة وجلال

أكثر المواضع قدسية فى كنيسة القيامة ، موضع القبر الذى دفن فيه السيد المسيح بين وفاته وصعوده .. وهو يقع الى يسار الداخل الى الكنيسة ، بعد خطوات من بابها . وقد بولغ فى تجميل عمارته ، وفى تزيينه وترصيعه ، مبالغة تدعونا لنذكر بساطة المسيح فى حياته .. ولنعجب كيف تؤدى هذه البساطة الى كل تلك الزينة ، والى هذا التأنق الفنى فى نحت القبر من أبدع الرخام ، وفى اضاءته على نحو لم يدر بخاطر صاحب القبر ، ولا بخاطر أحد من حوارييه .. ولكن ، فيم العجب وليست كنيسة القديس بطرس بروما دون كنيسة القيامة جلالا وبهاء وروعة .. وفيم العجب والمسجد النبوى بالمدينة لايتفق جمال عمارته فى شىء مع بساطته ، يوم شاده النبى من اللبن ، وجعل سقفه وعمده من جذوع النخل ؟

***

وكنيسة القيامة ، فيما وراء قبر السيد المسيح ، مضرب للمثل فى الفخامة والمهابة والجلال ، وليست مبالغة المسيحيين فى اكبارها وتعظيم عمارتها ، مما يوجب أية دهشة . ولا يرجع ذلك الى مكانتها المقدسة من نفوسهم فحسب .. بل يرجع كذلك الى ما احتملوه خلال الحروب الصليبية من تضحيات جسام ، جعلتهم يودعون فيها ذكر هذه التضحيات التى بذلت فداء للعقيدة ، كما ضحى المسيح بنفسه — فى اعتقادهم — ليفتدى بدمه خطايا الناس جميعا

تمتاز كنيسة القيامة على غيرها من الكنائس بأنها لا تقتصر على الفناء والمذبح والهيكل ، بل لقد أقيم بجوارها بناء متصل بها يرتفع سطحه عن

سطحها . ويذكر بعض القائمين بشئونها ، انه أقيم حيث المرتفع الذى صلب عليه السيد المسيح ، والذى كان يصلب عليه من حكم عليهم فى عهـده . وهذه الرواية موضع ريبة فى نظر كثيرين من المسيحيين الذين يؤمون بيت المقدس ، ويحاولون تحقيق مواضع الأماكن المقدسة فيها تحقيقا علميا .. فهؤلاء لا يذهبـون مذهب من يرتاب فى صـحة مكان القبر .. ولكنهم يقطعون بأن هذا البناء المرتفع المتصل بالكنيسة ، لا يذكر مكان الصلب فى كثير ولا فى قليل

وتقع الى جوار الكنيسة ، كنيسة أخرى صغيرة حفظت بها بعض آثار تنسب الى عهد المسيح والحواريين . وباب هذه الكنيسة يفتح الى الفضاء الواقع أمام باب القيـامة . وليس شيء من الآثار المحفوظة بهذه الكنيسة الصغيرة ، ثابت النسب ثبوتا تاريخيا ذا قيمة . وما يرويه سدنة الكنيسة من ذلك ، لا يعدو أن يكون من نوع القصص الذى يرويه سـدنة كل معبد ، يجذبون به قلوب المؤمنين ممن منّ الله عليهم بايمان العجائز ، أو بايمان كايمانهم

***

هذان الأثران المسيحيان اللذان ذكرتهما ــ كنيسة القيـامة وكنيسة المهد ــ هما اللذان يضارعان ما تحدثت عنه من الآثار الاسلامية بالحجاز وفلسطين فى فن العمارة .. وكما أن بالحجاز أماكن اسلامية لها من القدسية ما يستهوى اليها قلوب المسلمين الذين يؤدون فريضة الحج ، فان بفلسطين وحول بيت المقدس نفسها أماكن لها فى قلوب المسيحيين قدسية كبرى ..

وحسبى أن أشـير من هذه الأماكن المتصـلة ببيت المقدس الى جبـل الزيتون وطريق الآلام .. على اننى لا أريد الوقوف عند هـذه الأماكن المسيحية أو تلك الأماكن الاسلامية ، لأننى كما ذكرت من قبل انما وقفت عند الأماكن التى نالت بحكم قدسيتها من العناية الخاصة ، ما سنفسره فى الفصل الأخير عن الأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط ، لنستشف منه الدوافع التى حركت الوجدان الانسانى للعناية بتلك الأماكن المقدسة

لكنى أحرص قبل الحديث عن هذه الدوافع ، على أن أتحدث عن حائط المبكى . فهو المكان المقدس لليهود فى أرض المعاد .. واليهودية هى أولى الأديان السماوية الثلاثة التى نزلت بالشرق الأوسط . صحيح ان حائط المبكى لم يعمره اليهود .. وما كان لهم أن يعمروه . لكنه يحدث عن معنى له من القدسية فى نفوسهم ما للأماكن المقدسة التى تحدثنا عنها فى نفوس المسلمين ، وفى نفوس النصارى

— ٣ —

مبكى اليهود

* صورة الحذاء
* الشعب المختار
* حضارة اسرائيل
* السيد المسيح
* هدم الهيكل

مبكى اليهود

ألف النــاس من أهل بيت المقدس ، منظرا تقع عليه أعينهم بعد ظهر الجمعة وصبح السبت من كل أسبوع على مدار السنة .. منظر فذ لا مثيل له فى العالم كله ، وهو لذلك مثار طلعة الغريب النازل بيت المقدس حاجا أو سائحا . ففى هذين الموعدين من كل أسبوع ، تكتظ شوارع المدينــة وطرقها بعدد عظيم من الرجال والنساء والأطفال .. لبسوا أجمل ثيابهم على اختلاف صورها وألوانها .. فمنهم لابس القفطان والقبعة ، ومنهم لابس السروال والعمامة السوداء . والنساء فى أزيائهن المتباينة ، قد لبسن أفخر ما عندهن .. فقيرات كن أو ثريات ، وألبسن أطفالهن أجمل ثيابهم . ويتأبط كل من هؤلاء كتابا من كتب العبادة ، ويتوجهون جميعا وجهة واحدة .. يتوجهون الى ناحية حائط المبكى .. فأولئك هم اليهود ، ذاهبون يبكون

فاذا اتبعتهم فى طرق البلد المقــدس ، بلغت معهم ذلك الحائط الغربى الباقى من الهيكل المقدس .. ثم رأيتهم وقفوا جميعا أمامه ، يقبل بعضهم أحجاره ويتمسح بعضهم بها تبركا وطلبا للمثوبة . فاذا حان موعد البكاء ، رأيت ربانيهم وقف على رأسهم يحدوهم ويجيبونه . وقد صور غير واحد من السائحين الذين شهدوا هذا المنظر المثير للشجن ، صورة هؤلاء الباكين تسيل دموعهم على خدودهم ، وتخنق العبرات بعضهم حتى يكاد يغص بها .. وذكر هؤلاء السائحون حداء الربانى وجواب شعب اسرائيل .. هذا الحداء وهذا الجواب اللذان لم يتغيرا من تســعة عشر قرنا ، واللذان لا يزالان يترددان كل أسبوع فى أجواء بيت المقدس الى وقتنا الحاضر

صورة الحداء

وجدير بنا أن نروى صورة هذا الحداء وهذا الجواب للذين لم يقفوا من بعد عليهما ، ليروا صورة من آلام شعب اسرائيل وآماله . ونتبه قبل أن تبــدأ الرواية الى أن جواب الشعب لايزيد فى بدء النظر على هــذه

الكلمات : « نجلس فى عزلتنا ونتوح » .. أما ما سوى هـذه العبارة ، فحداء الربانى .. والمنظر يجرى كما يأتى :

الربانى : من أجل القصر الذى هجر ..

الشعب : نجلس فى عزلتنا ونتوح ..

ــ من أجل الجدران التى هدمت ..

ــ نجلس فى عزلتنا ونتوح ..

ــ من أجل مجدنا الذى ذهب ..

ــ نجلس فى عزلتنا ونتوح ..

ــ من أجل الهيكل الذى صار أطلالا ..

ــ نجلس فى عزلتنا ونتوح ..

ــ من أجل عظمائنا الذين ماتوا ..

ــ نجلس فى عزلتنا ونتوح ..

ــ من أجل رهباننا الذين قتلوا ..

ــ نجلس فى عزلتنا ونتوح ..

ــ من أجل ملوكنا الذين امتهنوا ..

ــ نجلس فى عزلتنا ونتوح ..

وقد ينقلب الحداء والجواب ، فى بعض هـذه الاجتماعات ، الى دعاء يتبادله الربانى والشعب على النحو الآتى :

الربانى : نبتهل اليك أن ترحم صهيون ..

الشعب : وأن تجمع أبناء بيت المقدس فى صعيد واحد ..

الربانى : أعجلنا بالخير يا منقذ صهيون ..

الشعب : وتحدث الى قلب بيت المقدس ..

الربانى : ولتعد مملكة صهيون عما قريب ..

الشعب : رطب قلوب الذين ينوحون على بيت المقدس ..

قد يختلف الحداء والجواب ، وقد تختلف الأدعية فى صورتها عما تقدم .

لكنها جميعا تدور حول هـــذه المعانى ، وتعبر عن هذه الآلام والآمال . أليست هى آلام كل يهودى منذ غلبهم الرومان ، وأدالوا دولتهم وهدموا هيكلهم .. ثم شتتوهم فى الأرض ، فصاروا لايعرفون لهم الى اليوم وطنا ولا مستقرا . وهم يحاولون بكل الوسائل ، يرجون أن تعود لهم الدولة فى أرض المعاد .. وهذا النوح ، وهذا الدعاء وهذا الاستغفار ، وهـــذا التوسل للبارىء جل وعلا .. بعض تلك الوسائل ، وان كنا لا ندرى بأى قدر يتعلق بهذه الوسيلة أملهم فى عالمنا الحاضر

وهـــذا الحائط الغربى الذى ينوحون عنده ، لايزيد عن انه بقيـــة من جدران الحرم الذى أقامه سليمان لهيكل بيت المقدس .. هذا الحرم الذى بنيت كنيسة القيامة فوق جانب منه ، وبنى المســجد الأقصى فوق جانب آخر ، وبنيت قبة الصخرة فى المكان الذى كان يقوم قدس الهيكل عليه .. هـــذه البقيـــة الباقيـــة من هيكل سليمان ، هى الأثر الذى يحدث شعب اسرائيل عن ذلك المسجد الغابر ، الأثر المحطم اليوم ، والذى كان شامخا رفيع العمـــاد فى عهد مضى حين عز اليهودية وعظمة بنى اسرائيل . وهـــذا الأثر هو الذى يريد بنو اسرائيل أن يعيدوا اليه مجده ، ويلتمسون لذلك كل الوسائل

وأنت تستطيع أن تقدر حزن هؤلاء الفاتحين ومبلغ عمقه ، حين تذكر المجد الغابر الذى كان لهم ، والذلة التى ضربت منذ عشرين قرنا عليهم .. فبنو اسرائيل هم سلالة ابراهيم واسحق ويعقوب .. وهم الذين أرسل الله اليهم موسى بكلمة التوحيد ، يوم كانت الوثنية هى الدين القائم فى الأمم المحيطة بهم ..

الشعب المختار

كان فرعون يقول لأهل مصر : « أنا ربكم الأعلى » وكان المصريون يرون الطبيعة آلهة ، فيخلعون مجـــالى الالوهيـــة على كل مظـــاهرها ..

فالشمس اله ، والسماء اله ، والأرض اله ، والليـل اله . وكانت وثنية اليونان ما تزال فى بدائيتهـا ، وكانت آلهتها تتطور الى مظاهر الطبيعة كذلك ، لتصبح أبولون ، وفينـوس ، وسكان الاولمب جميعا . وكانت مجوسية الفرس ترى فى النار والنور مصـدر الحياة ، وتخصهما لذلك بالألوهية ..

فى هذا العالم الوثنى الذى لم يتخط الشعور فيه آثار الحس المباشر ، سما بنو اسرائيل الى مراتب التجريد وألهموا سر الوجود ، وهداهم خالق الكون الى وحدانيته وصمدانيته وبذلك كانوا شعبه المختار ..

وفى هذا العالم الذى كانت المعابد تقوم فيه .. يذكر فيها آمون رع بمصر ، ويذكر أبولون باليونان ، وتذكر فيها نار المجوس بفارس . ذهب ابراهيم موغلا فى الصحراء حتى بلغ مكة ، فوضع فيها القواعد لأول بيت رفع للناس يذكر فيه اسم الله وحده لاشريك له ..

فى هذه الفلاة الموحشة ، أقام ابراهيم واسماعيل قواعد البيت بعيدا عن غزو الغزاة وعبث الطامعين .. فلمـا قويت شـوكة اسرائيل ، بعث الله كليمه موسى ، فسار بمن كان منهم بمصر الى وطن اسرائيل بكنعان من أرض فلسطين ، داعيا الى عبادة الله وحده ، ونبذ ما يدعو المصريون واليونان والفرس اليه من عبـادة مظاهر الطبيعة .. فالطبيعة ومظاهرها ليست الا بعض ما خلقه الله جل شأنه وتعالت أسماؤه

***

ولقى موسى وأهله عنتا من فرعون وقومه . .وكانت فلسطين خاضـعة يومئذ لحكم مصر ، فاستقلت من بعد .. وتولى أمرها داود ، ثم ابنـه سـليمان .. فأقام داود النواة الأولى للهيكل المقدس ، وأقام سـليمان الهيكل كله فى بهائه وفخامته وجلاله .. أقيم هذا الهيكل يذكر فيه اسم الله وحده لا شريك له ، وأقيم فى فخامة تضارع فخامة المعابد المصرية التى تؤله فيها مظاهر الطبيعة ..

وآن لبنى اسرائيل أن يقيموا حضارة ، وأن يذكروا فى الأرض اسم الله وحكمه وشريعته . بذلك أثاروا عليهم ثائرة الفراعنة وثائرة الفرس.. وغزا الفراعنة فلسطين ، فوجدوا فى دين موسى من أثر عباداتهم ما صدهم عن محاربة هذا الدين وعن التعرض لهيكله الأقدس . وغزا الفرس فلسطين من بعـد ذلك .. فاذا دين اسرائيل ينكر دينهم ويتجافى عنه .. لهذا أحرقوا هيكل سليمان ، وتركوه يبابا

على أن الهيكل أقيم بعد هذه الغزوات التى قام بها بختنصر .. أقيم بادىء الأمر على صورة دون صورته الأولى جلالا وفخامة .. لكن بناءه أعيد حين تولى هيرودس الأول حكم فلسطين باسم روما ، وأعيد أفخم مما كان فى أبهى عصوره وأكثرها عزا وأسماها مكانة

❋❋❋

تقلبت اسرائيل ، بحكم هذه الأحداث التى تعاقبت على القرون ، بين عزة الجاه العريض ، ومضطرب الثورة على الحكام الذين غزوها ، والعمل على دفع الغزاة عن أرضهم واستعادة سلطانهم عليها ودولتهم فيها .. لكنهم أبوا خلال هذه الأحداث جميعا أن ينشروا بين الناس عقيدتهم ، أو يذيعوا كلمة التوحيد فى غير شعبهم ، حرصا منهم على أن يظلوا شعب الله المختار.. أو سموا بفكرتهم على أن يتناولها أولئك الذين يعبـدون من دون الله بعض ما خلق الله .. لذلك ظلت اليهـودية مقصـورة عليهم لا تتعـدى حدودهم ، ثم اندس اليها من عوامل الانحلال الروحى ما يترتب حتما على الانحلال الاجتماعى الذى يجره الاستعمار فى ذيوله . لذلك انصرف شعب اسرائيل عن المعانى الروحية السامية الى هذه الحياة الدنيا ، وان بقى من أحباره ورهبـانه من أقاموا على حكم التوراة ، ومن احتفظوا بمميزات هذا الشعب .. مميزات المثابرة ، ودقة المنطق ، وصفاء الذهن

❋❋❋

كان انصراف بنى اسرائيل عن شرعة التوراة فى أسمى معانيها ، يدعو

بعض هؤلاء الأحبار والرهبان ليتوقعوا قيام نبى من قومهم يبعثه الله ، ليعيد اليهم مجدهم ويرد السلطان لدولتهم. وكانت الامبراطورية الرومانية اذ ذاك ، قد عظم أمرها فى أوروبا ، وآن لها أن تستقر على ضفاف بحر الروم من ناحية الشرق .. بعد أن كانت يدها تمتد اليه ، ثم تنقبض عنه

وتم ذلك حين غزا بومبى فلسطين فى السنة الثالثة والستين قبل الميلاد .. لقد قاومت بيت المقدس ، وقاومت حصون الهيكل المقدس ، جيوش الروم مقاومة عنيفة . لكن هذه الجيوش انتهت الى التغلب عليها ، واقرار حكم الامبراطورية فى ربوعها .. على أن الروم لم يتعرضوا يومئذ للهيكل ، ولم يحاولوا دك قواعده . بل تركوه قائما واستأمنوا أهله الذين أعلنوا الخضوع والطاعة ، ورضوا أن تستقر روما فى أرض اسرائيل

السيد المسيح

لم ينقض القرن على غزو بومبى أرض فلسطين ، حتى أذن الله للسيد المسيح ، فقام يدعو قومه من بنى اسرائيل ليعودوا الى الله وليدخلوا على ملكوته . وكانت دعوته بطبيعتها ثورة على انحراف اليهودية عن شرعة التوراة .. كما كانت ثورة على الغزاة الظالمين . وقد لقيت هذه الدعوة مقاومة من بنى قومه ، ومن الحاكم باسم روما . وبلغت هذه المقاومة شدة العنف حين دخل المسيح بيت المقدس ..

لكن الله كان قد أتم يومئذ كلمتـه على لسان عيسى ، وكان قـد أعد حوارييه ليذيعوا هذه الكلمة فى الأرض ، لا يحتفظون بها لأنفسهم كما فعل أسلافهم من قبل . فلما توفى الله عيسى ورفعه اليه ، خيل لقومه من بنى اسرائيل أنهم قد آن لهم أن يطمئنـوا الى عقـائدهم .. لكن بذور الثورة التى بثتها كلمة عيسى فى الناس ، دفعت بنى اسرائيـل أنفسهم لينتقضوا على حكم روما وليثوروا بها

***

وبلغ الانتقاض أوجه ، بعد أربعين سنة من وفاة عيسى .. عند ذلك ذهب

تيطس فســبازيان من روما الى فلسطين ، وأقسم ليخضعن بنى اسرائيل وليضربنهم بيد من حديد . وقاومت فلسطين جيوشه مقاومة عنيفة .. يقول جوريفومل مؤرخ ذلك العصر ، وكان يعيش فيه : « الآن ولم يبق أمل فى الخلاص ، فذلك أوان القتال حتى الموت .. فمن الشجاعة أن يقــدم الانسان المجد على الحياة ، وأن ينهض الى عمل نبيل تذكره الأجيال من بعده »

قال المؤرخ هــذه الكلمة البالغة فى ســموها ، يوم كان أنين شعب اسرائيل ، لمظالم الرومان وقســوتهم ، قد بلغ غاية مداه .. لكن جيوش روما التى ألفت الظفر لم تصدها المقاومة ، بل سارت من مدينة الى مدينة تقتل الناس وتحرق البلاد وتشيع فى الأرض الفساد .. فلم يكن لصــدها سبيل . وحاصر الروم بيت المقدس ، فقاومتهم وطالت مقاومتها حتى تفشى بين أهلها المرض بسبب الجوع .. ثم أسلمت مفاتيحها الى الفاتحين ..

هدم الهيكل

دخلت جيوش روما بيت المقدس ، فهدمت الهيكل وأعملت السيف فى رقاب أهلها ، وأسرت من بنى اسرائيل كل من لم يمت وأجلتهم عن المدينة.. بل أجلتهم عن فلسطين كلها ، فتشتتوا فى البلاد المجاورة ..

ذهب منهم من ذهب الى العراق ، وانحدر منهم من انحدر الى شــبه جزيرة العرب ، وعاد منهم من عاد الى مصر ... وانحل عنهم ذلك السلطان الذى كانوا يعتزون به ، وأصبحوا لا يعرفون لهم وطنا ولا مستقرا

***

أجلاهم المسلمون عن شبه جزيرة العرب فى العهد الأول للدين الحنيف ، بعد منــازعات وحروب بين هؤلاء وأولئك .. ونظر اليهم المسيحيون فى مختلف بقاع الأرض ، نظرة متأثرة بما كان بين اليهود والمسيح .. مما انتهى الى قصة الصلب فى كتب المسيحية المقدسة . وأبى عليهم الناس جميعا أن يستقروا فى بقعة من الأرض تكون وطنــا لهم .. ذلك شــأنهم منذ ألف

وتسعمائة سنة .. وذلك شأنهم الى يومنا الحاضر وبنو اسرائيل خلال هذه المحن ، لايزال حنينهم الى أرض المعاد كحنين أجدادهم الأولين .. ولايزال رجاؤهم متصلا فى أن تعود اليهم دولتهم ، وأن يكونوا فى الأرض الحاكمين

من أجل هذا الذى أصابهم ، يبكى اليهود وينوحون .. ومن أجله يذهب المقيمون منهم ببيت المقدس بعد الظهر من يوم الجمعة ، أو صبح السبت ، كل أسبوع .. على مدار السنة ، حتى اذا بلغوا بقية جدار الهيكل ، وقف ربانيهم على رأسهم يذكر ما أصابهم من هدم هيكلهم ، وقتل رهبانهم وذهاب ملكهم .. فتسيل لذلك دموعهم ، ويهوى الحزن بقلوبهم الى قرار سحيق ، ثم يضرعون الى الله أن تعود دولتهم ليكونوا فى الأرض الحاكمين (١).

(١) سبق ان اشرنا الى ان هذه الفصول كتبت فى حوالى عام ١٩٤٢ اى قبل احتلال الاسرائيليين لفلسطين سنة ١٩٤٨

— ٤ —

الأماكن المقدسة لماذا لم تحتفظ ببساطتها

* بساطة الاماكن المقدسة
* جمال البناء والفن الذي انتقلت اليه
* نظرة المفكرين للتجديد

بساطة الاماكن المقدسة

سبق أن أشرت الى أن الفكرة التى أوحت باقامة الأماكن المقدسة ، تستمد وجودها من الأديان السماوية الثلاثة التى نزلت بهذا الشرق الأوسط : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام .. وأن مصدر هذه الفكرة هو الالتجاء الروحى الى مكان بذاته ، يعتبر فى نظر الذين يحجونه موئلا لأرواحهم ، وملاذا لقلوبهم المتعطشة الى التطهر .. ترجوه حيثما تكون من بقاع الأرض ، ثم لا تطمئن الى أنها أدركت حظها منه حتى تحج هذا المكان ..

فاذا أتم هؤلاء حجهم ، آمنوا بأن الله قبل توبتهم .. وحط عنهم أوزارهم وذنوبهم ، لقاء ما توجهوا اليه منيبين مخلصين ، وما سمت نفوسهم حين الحج الى ذرى المعانى الروحية

والواقع أن الصادقين فى حجهم ، من أهل هذه الأديان ، يخالج وجدانهم حين الحج شعور فياض بمعان تسمو كل السمو على ما ألفوا فيما سبق من حياتهم ..

هذه المعانى تختلف باختلاف منازع الناس ، ومبلغ ثقافتهم ، وألوان تفكيرهم .. تختلف عند الرجل الساذج عنها عند الرجل الذى ألف التفكير، ثم شعر كما شعر ذلك الساذج ، بمكان الحج يدعوه اليه ليطهر عنده .. لكنها عند الرجلين سمو بالنفس الى ما فوق نفسها ، وحرص على الاتصال بالملأ الأعلى من ملكوت الله ، ورجاء فى وجهه الأكرم أن ييسر هذا الاتصال ، لنكون فى غدنا خيرا مما كنا فى أمسنا .. فنبلغ بذلك مكان النفس المطمئنة .. ترجع الى ربها راضية مرضية ، تدخل فى عباده وتدخل جنته .

وقد رأينا كيف كانت هذه الأماكن أول أمرها بسيطة كل البساطة ، وكيف تطور أمرها على تعاقب القرون .. فبلغت من الفخامة والمهابة

والجلال أعظم مبلغ ..

وهذه ظاهرة نراها فى الأماكن المقدسة فى أنحاء الأرض جميعا ، بل نراها ظاهرة فى أماكن العبادة كلها فى الأديان المختلفة .. تبدأ هــذه الأماكن بسيطة ، ثم تتدرج شيئا فشيئا الى الفخامة .. وذلك أمرها بنوع خاص حين تقام ذكرا لأمر تاريخى جسيم الخطر

ما سبب هذا ؟..

لم لا يحتفظ الناس لهذه الأماكن المقدسة ببساطتها الأولى لينعموا بما البساطة من روعة ومهابة ؟..

السبب واضح .. فالفكرة التى أقامت هذه الاماكن فكرة خالدة ، ولذلك تبقى جديدة أمام كل جيل جديد ..

طبيعى ان يلتمس الناس لذكر الفكرة الخالدة مظهرا يبقى على الدهر أطول زمن ، يستطيع الانسان أن يضمن بقاءه عليه

هذا هو السر فى تشييد المصريين القدماء الاهرام والمعابد التى لا تزال باقية تشهدها أعيننا رغم مر السنين وكر القرون .. انهم شادوها رمزا لمعان باقية ، فيجب ان يكون لها من حظ البقاء ما لهذه المعانى ..

وقد بقيت آثار القدماء المصريين عمرا أطول من عمر المعانى التى قامت تخلدها .. فحق ان تبقى الاماكن المقدسة عمرا يوازى عمر هذه المعانى الجليلة التى شادتها ، والتى لا يجىء عليها الزمان ..

فاذا عجز الانسان عن ان يقيم هذه الاماكن للخلود ، فليقمها لتعمر على القرون ، ما استطاع علمه وفنه ، أن يحفظها خالدة على القرون

ترى لو أن مسجد النبى العربى بالمدينة ، بقيت عمارته كما شاده عليه السلام .. أفكان مقدرا له أن يبقى على وجه الزمان ، أم أنه كان يعرض لأعاصير الحدثان مما شهدته الايام وما لا تزال تشهده أعيننا ؟ ..

لذلك قوى عثمان بن عفان عمارته كما رأينا ، وان لم يفكر فى زينته كما فكر عبد الملك بن مروان ، وكما فكر المسلمون على القرون التى تعاقبت من بعده ..

وما يقال عن مسجد النبى بالمدينة ، يصدق على غيره من الأماكن التى شيدت لتخلد فكرة عظيمة .. بدأت كلها بسيطة بساطة الفكرة التى دعت الى اقامتها . وأكثر الأفكار قوة أكثرها وضوحا وأكثرها لذلك بساطة .. لذلك تنغرس فى نفوس النـــاس وتستولى عليهم .. فيزدادون شـــعورا بقوتها ، فيزيدهم ذلك حرصا على تقوية الأثر الذى يذكرها

ولما كانت الفكرة تتصل دائما برجل ألهمها أو أوحى اليه بها ، فذكر هذا الرجل يتصل بذكر الفكرة العظيمة التى تنسب اليه ، من ثم ، تقام للعظيم آثار كالآثار التى تقام لفكرته ..

أشرنا الى مسجد النبى العربى .. هذا المسجد الذى أقامه النبى بسيطا ، فجعله المسلمون من بعده مثال المتانة والجلال والجمال ..

كذلك الشأن فى كنيسة المهد ، وكنيسة القيـــامة .. هما يقومان ذكرا للمسيح عليه السلام يوم ولد ، ويوم توفاه الله ورفعه اليه .. وهما لذلك آية فى المتانة والروعة

هذه الآثار التى تقام للعظماء ، تضارع الآثار التى تقام تخليدا للفكرة التى جاءوا بها .. فبيت الله الحرام بمكة ، والمسجد الأقصى ببيت المقدس ، يقومان ذكرا لفكرة التوحيد من يوم هدى الله أنبياءه ورسله اليه ، وألقى عليهم أن يبلغوا الناس فكرته ..

فهذان الأثران المقدسان تضارعهما الآثار التى أقيمت لمن هدوا الانسانية الى فكرة التوحيد قوة وجلالا وعظمة

لا يكتفى الناس بتقوية الأماكن المقدسة لتقاوم الزمان وأحداثه .. بل هم يضفون عليها من ألوان البهاء والجمال والجلال غاية ما يهديهم اليه عملهم وفنهم ..

لماذا ؟..

لأن الفكرة العظيمة لها على بساطتها من البهاء والجمال والجلال ، ما يبهر اللب ويأخذ بمجامع القلب

الصورة المادية للمعاني المجردة

بهاء الفكرة معنوى ، وجلالها روحى ..

وبهاء الأماكن التى تذكرها ، وجلال هذه الأماكن وجمالها مادى .. فكيف يقاس المادى بالمعنوى ؟..

لك أن تسأل هذا السؤال .. وجوابنا عليه أن من طبيعة الانسان أن يخلع الصورة المادية على المعانى المجردة ، لأن الانسان قلما يدرك المعنى المجرد الا أن تقوم له فى نفسه صورة مادية ..

فاذا استطاع المفكرون أن يجردوا المعانى ، وأن يدركوها لذاتها ، وأن تتمثل أمامهم حقائق لها صورتها الواضحة كوضوح الصورة المادية فى نظر سواد الناس .. فان هذا السواد لا سبيل له الى امتثال الصورة المعنوية أو الروحية الا أن يقيم لها فى أطواء نفسه صورة مادية

لما فتح رسول الله مكة ودخل الكعبة ، رأى جدرانها صــورت عليها الملائكة نساء ذوات جمال . .فأنكر هذه الصور لأن الملائكة ليسوا ذكورا ولا اناثا ، وليس لهم فى النفس التى تدرك المعانى المجردة صورة مادية .. لذلك أمر النبى فطمست هذه الصور ..

على أن للذين صوروها عذرهم الذى سبق بيانه .. فالصورة المجردة لا يمكن أن تثبت فى نفس السواد قائمة بذاتها بل لابد لها من جســد تستقر فيه لتحيا به فى تصورهم كحياة الروح فى الجسم

ولقد رأينا المصورين الأوربيين فى القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر يصورون الملائكة على نحو يقرب مما كان على جدران الكعبة .. ولا يزال هذا شأن أهل الفن الى يومنا .. ذلك بأن الصورة المجردة لا يمكن أن تثبت أمام حواسنا الا اذا اتخذت الصورة المادية لباسا لها تستقر عليه الحواس

ودليل أكثر وضوحا على أن السواد لا يستطيع تمثل الصورة المعنوية

الا فى صورة مادية ، عبادة الأصنام .. فهذه الأصنام كانت تعبد عند العرب ، وعند غير العرب ، على أنها صورة للاله على ما كان يتصورها أهل تلك العصور

وليس بين المعانى التى تقوم بالنفس ما يسمو على كل صورة مادية كمعنى الألوهية السامى . مع ذلك عجز السواد فى الماضى عن تصور هذا المعنى مجردا من المحسوسات المادية ، فاتخذوا من الفن وسيلتهم الى تمليق هذا العجز فى نفوسهم دون الاعتراف به صراحة وجهرا

لهذا يضفى الناس على الأماكن المقدسة أروع صور الفن وأبدعها وأجملها ..

ولهذا أوحت المعانى الدينيــة الى الفن ، وألهمت أربابه خير ما خلفوا للانسانية من تراثهم البارع

ولقد رأيت الشيء الكثير من هذا الفن حين تحدثنا عن مسجد النبى وقبة الصخرة ، وعن كنيسة المهد وكنيسة القيامة ..

وأنت ترى منه الشيء الكثير فى المساجد والكنائس حيثما ذهبت من أنحاء العالم .. ترى فن العمارة بالغا غاية عظمته وجلاله ، وترى سائر الفنون متجلية فى التماثيل والصور فى الكنائس وفى السجاجيد والخط الجميل فى المساجد ..

ذلك لأن الفكرة العظيمة التى أقامت هذه المعابد الفخمة ، حركت الوجدان الانسانى للعناية بها عناية تتفق مع جلال هذه الفكرة وعظمتها

نظرة المفكرين للتجسيد المادى

ذكرت أن المفكرين قديرون على تصور الفكرة المجردة لذاتها ، وانها تتمثل لبصائرهم فى صورة واضحة كوضوح الصورة المادية فى نظر سواد الناس ، وهم يسمون بالفكرة عن أن تلبس اللباس المادى سموا كبيرا ، بل هم يرون فى الباسها هذا اللباس حدا منها وتضييقا لآفاقها ، يصلان فى كثير من الأحيان الى افسادها ..

فكيف يرضون عن النزول بها فى الأماكن المقدسة ، وفى غير الأماكن المقدسة الى أن تصور صورة مادية ؟

وكيف يسكتون على ذلك ولا يحاربونه ؟

ثم كيف يحض الحاكمون وأولو الأمر عليه ويشجعونه ؟

لم لا يصنع المفكرون ما صنع النبى العربى حين طمس الصور التى كانت على جدران الكعبة ، وحين حطم الأصنام القائمة فيها ؟

لا أرانى بحاجة الى القول بأن السمو الى مقام الرسالة أمر غير ميسور، الا لمن اختارهم الله لها ..

وأزيد على ذلك ، ان أولى الأمر ليسوا دائما من المفكرين الذين يسمو تفكيرهم الى مقام التجريد وتمثل الفكرة فى حيويتها الذاتية غير كاسية ثوب المادة ..

وسيان منهم من سموا الى هذا المقام ومن لم يسموا اليه .. هم جميعا ينظرون الى أمور الحكم بعين الواقع لا بعين التجريد والبصيرة المطلقة من قيود هذا الواقع ..

وهم يقدرون أن الرسول النبى العربى قد عفى على ما وجد بالكعبة من الآثار حتى لا يبقى لعبادة الأصنام فى النفوس أثر

أما وقد بلغ الأمر من ذلك مداه ، ولم تبق لهذه العبادة فى النفوس باقية ، فلتكن معانى الحكم قريبة من متناول ادراك السواد حتى يطمئن الناس الى هذا الحكم ويرضوا عنه . ومن أسباب الرضا أن تقرب الى أذهانهم المعانى النفسية فى صور مادية . ولذا أنفق عبد الملك بن مروان وغيره من الملوك والأمراء ، وبالغوا فى الانفاق على عمارة الأماكن المقدسة ، حتى يصل بها الفن الى أبهى صور الجمال والجلال

أما المفكرون ، فلا يحاربون هذا التجسيد المادى للمعانى الذهنية والروحية ، لأنهم يرونه ظاهرة من ظواهر الحياة الانسانية لا غنى للناس عنها .. بل لعلهم يرون فى هذا التجسيد ابقاء على المعانى السامية فى نفوس

السواد ، لأنه لا يستطيع أن يدرك هـذه المعانى دون أن تلبس هـذا الثوب ..

هؤلاء على الأقل هم المفكرون أولو الأفق الفسيح فى تصور الحياة وما تنطوى عليه ، أما المتزمتون فلا يذهبون مذهبهم ..

ألسنا قد ذكرنا ما كان من انكار بعض المسلمين لعمل عثمان بن عفان ، حين زاد فى رقعة مسجد النبى ، وانتقل بعمارته من البساطة التى كان عليها فى عهد النبى وفى عهد أبى بكر وعمر الى بعض الفخامة والزينة ؟

ألم نذكر كيف ضج المسلمون حين أدخلت بيوت النبى فى مسجده رغم ما كان من ابداع عمر بن عبد العزيز فى عمارة الحجرة النبوية وفى زينتها ؟

هذا .. ثم ان للفن الجميل مقامه السامى عند المفكرين ، قبل أن يكون له مثل هـذا المقام عند غيرهم . فاذا كانت الفكرة السامية حقيقة جديرة بالخلود ، فالفن الذى يخلد هذه الفكرة فى نفس الانسانية جدير بأن يشجع وألا يحارب . وهو انما يشجع لذاته . فاذا أدت آثاره الى أن تندس الى النفوس معان وثنية قامت الفكرة للقضاء عليها كما هو الشأن فى الأديان التى قامت فى الشرق الأوسط فانما تعلن الحرب على هذه المعانى الوثنية لا على الأثر الفنى الذى تنسب له ..

وهذا ما قام به المفكرون من قبل ، وما يقومون به اليوم .. وللجهود التى يبذلونها فى هذا السبيل أثرها القيم لا ريب .. هذا الأثر الذى كفل بقاء فكرة التوحيد فى نفوس السواد ، لا تطغى عليها الصـورة الوثنية طغيانا يهدد كيانها أو يخشى خطره عليها

فهرس

طبع بمطابع دار الهلال

توزيـــع
الوكالة العربية للصحافة والنشر
« عربية »
١٠٦ شارع ٢٦ يوليو بالزمالك ـ القاهرة